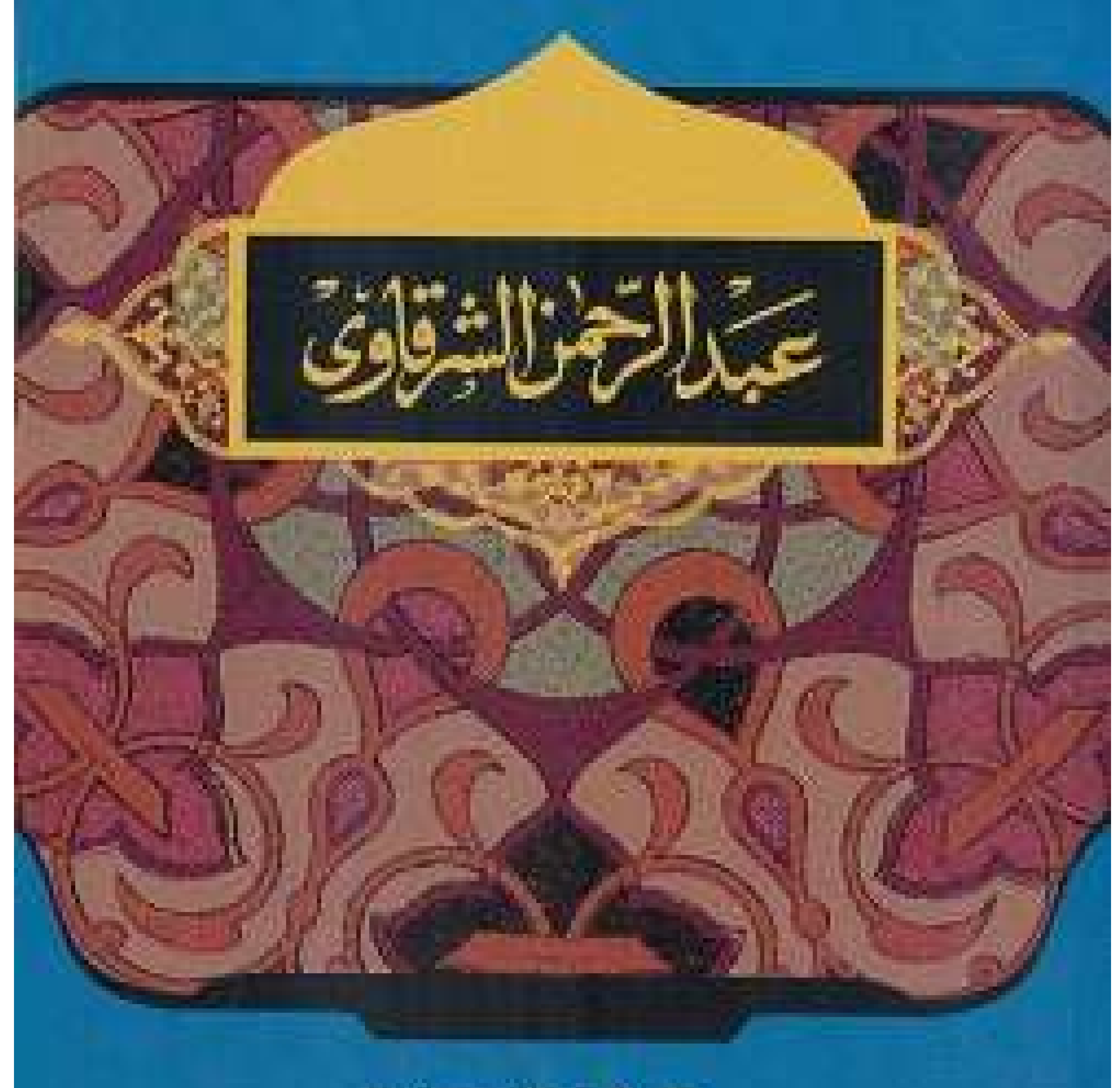


قراءات في الفكر الإسلامي

دار الشروق

أول ثورة

أقام الأمويون دولتهم الجديدة على أرض لم تجف من عليها بعد دماء علي والحسين.

وإذا كانت قصور أمية تزحم الفضاء وتنطح السماء في دمشق، كان (آل رسول الله ❐ في الفلوات) كما يقول شاعرهم في مرثيته الذائعة النائحة.

وفي الحق أن التيه العامر بالرمال والصخور وأساطير الجن من كربلاء إلى المدينة، لم يشهد من قبل ألوانًا من المآسي والمجازر، كما شهد في تلك الأيام من حكم أمية.

شاعت قصص اضطهاد أبناء علي، وتناقلتها الهمسات على خفق الزفرات مخضبة بالدموع.. وامتلأت نفوس العرب بالإشفاق والمرارة على أحفاد (محمد) الذين تطاردهم لعنة الدولة في كل سبيل.. وتطلع العرب خلال هذا كله إلى هذه الدولة الجديدة التي تحكم أرض النبي من رياض دمشق.. فوجدوا أنها قد اتخذت أساليب لا عهد للعرب بها من قبل: فقد اصطنعت القصور والحجاب والجواري، ولم يعد في استطاعة أي رجل أو امرأة أن يلقي أمير المؤمنين

في بعض الطريق، فيقتحم عليه الطريق ليتحدث إليه.. وإنما أصبح دون أمير المؤمنين حجاب وحجاب.

لم تعد الحياة بسيطة كما كانت على عهد أبي بكر وعثمان وعلي.. ولم يعد الخليفة يحب لنفسه من اللباس ما خشن!!

ولم يعد يبكي حتى تخضلَّ لحيته وهو يفكر في مسئولية الحكم، ومصائر المحكومين!!

وإنما فتن الخلفاء فتوناً عظيما، وأهدروا كل ما عرفه المسلمون في الأيام الجميلة الماضية.. وكان المسلمون في الأيام الجميلة الماضية، قد عرفوا أن الولاة لا ينبغي لهم امتلاك شيء من الأرض التي يولون عليها.. هكذا شرع أبو بكر وعمر.. وعلى هذا سار عثمان وعلي .

وكان المسلمون في الأيام الماضية لا يدفعون ضريبة للدولة.

وكان الذين يدخلون الإسلام يتمتعون بكل حقوق المسلمين، فترفع عنهم الجزية، وكانت حياة الإنسان غالية.. لا يهدرها إلا الجهاد، ولا يسلبها الوالي إلا في قتل نفس مؤمنة أو غير مؤمنة ونفس بنفس.

وكانت حرية الإنسان مقدسة، لا يؤذى فيها إلا إذا ارتكب جريمة، وصدر قضاء من أمير المؤمنين أو نائبه بعد أن تثبت الإدانة.

كان هذا كله في الأيام الجميلة الماضية.. أيام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي .

غير أن أمراء المؤمنين من بني أمية خالفوا كل هذا، دفعة واحدة.

فقد أخذ الولاة يغتصبون الأرض الطيبة من الولايات، وبهذا أفقروا عددا كبيرا من الملاك.. وقلبوهم إلى صعاليك لا يملكون شيئا، واستعانوا على زرع هذه الأراضي برقيق أسود من أعماق أفريقيا.. وهكذا خلقوا طائفة من الطفيليين من المجتمع العربي، تتاجر في مصائر البشر وحياتهم.. وكانت هذه الطائفة من تجار الرقيق هي التي تقوم بدور الشركات الكبرى التي تورد آلات الإنتاج في مجتمعنا الحديث.. وكان لها من أجل هذا سلطان على الولاة، وعلى جهاز الدولة.

وفي نفس الوقت لم يعد المسلمون يعفون من الضرائب، فقد احتال أمراء أمية ليفرضوا ضرائب على المسلمين؛ متأثرين بنظام الحكم الذي كان سائدا في دول الفرس والروم.

ثم إن الجزية التي فرضت على غير المسلمين، لترفع عنهم إذا دخلوا الإسلام، ظلت مفروضة على غير المسلم حتى إذا أسلم ود[illegible] [illegible] إسلامه.

كل هذا.. والحياة والحرية أيضا.

فالولاة يضعون الناس في السجن ويعذبونهم حتى يموتوا صبرا أو جوعا.. ويعملون السيوف في الرقاب لا لشيء إلا لحفظ نظام الحكم.. وهو نظام يقوم على أن تحكم أمية وحدها، وتخالف ما سار عليه أبو بكر وعمر.

وفي تلك الأيام لم يكن يرتفع رأس بمعارضة أمية إلا ويهوى على الفور.. فقد فرضتها أمية قيصرية خانقة تعبث بالمقدسات الإسلامية جميعا، وتمتهن كل ما احترمه الناس في عهود الخلفاء الراشدين، وكان لهذه الدولة دعاة بالطبع.. ومن خلالهم لجأت الدولة إلى الحيلة، وأعلنت وأقسمت أنها إنما تفعل ما تفعل باسم الإسلام، ولحماية الإسلام.

ولجأ دعاتها إلى نصوص القرآن لعلها تسعف.. وفسروا النصوص بطريقة ظاهرية سطحية أسعفتهم في تبرير كثير من التصرفات.. وحيث لم يسعف القرآن، استدعت الدولة إسعافا سريعا من الأحاديث.. وليس أيسر من الأحاديث فهي غير مدونة والرواة المتطوعون كثير.

وقد وجدت الدولة بالفعل رواة يضعون الأحاديث، أو يفسرونها كما يهوى نظام الحكم.

وكما وجد في العصر الحديث فقهاء أفتوا بأن الإسلام يأبى تحديد الملكية إرضاء لفاروق أكبر المالكين.. فقد وجدت الدولة الأموية فقهاء يفتون لها بكل ما تريد.. ويفسرون القرآن والحديث بما يصون مصالح الدكتاتورية الغاشمة.

وقتل الحسين.. بحديث قاله جده.. وتأوله أعداؤه!!

وشرد أحفاد محمد باسم التعاليم التي نادى بها محمد!!

وامتهنت قداسات الدين باسم الدين.

وفي كلمة أصبح لجهاز الدولة الجديد.. أدوات نشر ودعاية؛ اتخذت شكل آراء فقهية ومدارس في فهم الدين.. ووجد للدولة أدب وشعر غالي في دعايته، حتى لقد هجا

بعض الشعر بني هاشم قوم محمد وعلي، وفضل عليهم بني سفيان قوم معاوية.

على أن جهاز الدولة، وهو يقوم بمحاولاتـه الخادعـة الجبارة لحماية نظام الحكم، لم يستفد من الذين يـدعون لـه بشكل مباشر فحسب، لم يجعل كل همه إلى الذين يفسرون له القرآن والحديث ويختلفون له الرواية فقط، وإنما عني بطائفة أخرى كانت تحاول أن تـُميع الصراع بين الدولـة وأعـداء الدولة.. فحينما كانت شيعة علي تـتهم معاويـة والأمـويين بالكفر.. وكان الأمويون يلهثون لاستنباط ما يؤكـد إيمـانهم وحسن إسلامهم ويبرر عدوانهم الوحشي على حيـاة النـاس وحرياتهم وأرزاقهم.. حينما كان هذا الصراع يغلي ويحتدم، قامت فئة من الناس تدعو المسلمين إلى أن يرجئـوا الحكـم على الحزبين إلى يوم القيامة، فليس لإنسان أن يقضي علـى إنسان بالخطأ أو الصواب، وإنما الأمر الله جميعا، وهو وحده يوم القيامة يضع الموازين والحساب.

وفرح الأمويون بهؤلاء المرجئة، وعملوا علـى إذاعـة نظريتهم، بل إنهم التقطوا زعيمهم وعينوه واليا، ليصنع كما

كان يصنع غيره من ولاة أمية، ويرجئ الحساب إلـى يـوم

الحساب. وهكذا قامت الدولة على لون من الفكر يزيف النصـوص

أو يزيف فهمها.. أو تزيف المصلحة له أسلوبا من الفهـم.. والمصالح دائما هي التي تفهم وتريد وتتصرف.. وتقتـل إذا اقتضى الأمر، وتمرغ كل المقدسات في الوحل.. المصـالح لا الرجال!

ولكن رجال الدولة لم يكونوا هم قوام المجتمع العربـي.. فقد كان هناك الملايين الأخرى التي تعيش وتتألم وتطاردها اللعنة وتصنع التاريخ، وتعطي للحياة دفئها ونبضاتها.

فالمجتمع العربي إذ ذاك يتألف من: الـولاة.. والمـلاك الكبار الذين اغتصبوا أرض الصغار، والتجار الذين انحدروا عبر الأجيال من تجار قريش أعداء محمد الألـداء.. وهـم الذين ركزوا في أيديهم التجارة، وأفقروا مئات أخـرى مـن التجار الصغار.. وعلى رأس هؤلاء التجار كان تجار الرقيق الذين يوردون للدولة أدوات الإنتاج في الأرض: من السود، ويوردون لها أيضا أداة الحكم من العسكر المرتزقـة.. وأداة المتعة من الجواري والمحظيات والقيان!!

وهذه هي الطبقة الحاكمة.. ولها أدبها وفكرها الذي يتمسك ببقائها، ويخون القيم الإنسانية، ويهدر حقائق ما جاء به الدين الجديد، ليمكن لها في الأرض، ما دام هذا كله يغذي مصالحها.

ومن الناحية الأخرى فقد كانت هناك الفئات المحكومة، وهي فئات مصالحها ضد الدولة، وقد تختلف فيما بينها خلافًا غير ظاهر..

وكان من بين هذه الفئات: الملاك الذين افتقروا، والداخلون في الإسلام الذين ما زالوا يدفعون الجزية، والتجار الصغار، والفلاحون الذين تسيل حياتهم على الأرض في حبات العرق قطرة قطرة.. وكان هناك آخر الأمر مجموعة كبيرة واسعة من الصعاليك الذين لا يملكون حتى المصير، ثم الموالي والأرقاء، وكل الذين حررتهم تعاليم محمد، ولكن أمية عادت فكبلتهم في الأغلال!

والصراع الذي لا يهدأ بين أمية الحاكمة، وبين هؤلاء المحكومين، هو الذي كتب التاريخ العربي.

وكان شيعة علي بالطبع من بين المحكومين.. كانت بيوتهم خربة.. والذين بقوا منهم أحياء يعيشون على الكفاف.

(وأيديهمو من فيئهم صفرات) – كما بكاهم أحد شعراء ذلك العصر – تتلقفهم يد الدولة، ويطاردهم الرعب في كل دروب الأرض.

وكان لهم فكر وأدب جعل همه كله أن يهاجم أمية، وأن يعارض كل ما فهمته أمية من القرآن أو الحديث، حتى القليل الذي لم يزيفه دعاة أمية.

وكما ذهبت أمية إلى آخر مدى في التزييف ذهبت شيعة علي والحسين إلى آخر المدى المقابل في معارضة فكر الطبقة الحاكمة.

وفي الحق أن النزاع على إمارة المؤمنين، كان أهم ما يحكم الخلاف الفكري بين أمية ودعاتها من المرجئة والسلفيين وأهل السنة من جهة وبين الشيعة من جهة أخرى.. أما الفلاحون والتجار الصغار والموالي.. وكل الذين يريدون لهم مكانًا مطمئنا تحت الشمس، فقد انبثقت من أعماق مأساتهم أفكار أخرى، وأدب آخر..

اعتزلوا ضجة الصراع حول إمارة المؤمنين.. وقاموا ينادون بالعدل وحده.. بحرية الإنسان في أن يعمل ويعيش، بحرية العقل في أن يسود العالم لينقذه من الفوضى!

ومن الظلمات الرهيبة التي يعيش فيها الفقراء والموالي بزغ فكر جديد يمثله واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وتبعهما كثيرون حين أعلنا اعتزال الصراع حول إمارة المؤمنين وسموا بالمعتزلة من أجل ذلك.

ثم أعلن هذا الفكر الجديد أنه يريد العدل فأطلق على ممثليه (أصحاب العدل).

***

كانوا قد روعوا من الظلم الذي يحيق بالناس، ويجد تبريرا له في تفسير نصوص القرآن والحديث، فحاولوا أن يفرضوا العقل على كل شيء: على الحديث، والقرآن نفسه! وأعلنوا أن كل ما خالف العقل الإنساني باطل، والتشريع الصحيح هو وحده الذي يحقق للناس مصالحهم.

أعلنوا أنهم يؤمنون بالإنسان وبقدرة الإنسان على أن يصنع المصير، ووقفوا في وجه الجامدين الذين حاولوا أن يملأوا الحياة الإسلامية بعقيدة أن الإنسان مسير لا مخير، وأن الجبر لا الاختيار يحكم وجوده، وأن القدر وحده لا الإنسان هو الذي ينظّم الحياة ويصوغ المصير.

وقف المعتزلة في وجه هؤلاء الذين حاولوا عن طريق جبريتهم أن يفرضوا على المجتمع، لوناً بائسا من الإذعان، لبطش أمية وعسفها.

وهكذا أيدهم مفكرو الشيعة في المناداة بتحرير العقل..

وباسم الذين يريدون أن يتمتعوا بحرية الاختيار أمام قوى المجهول، وباسم الذين يريدون أن يمارسوا حرية الإرادة فيما يصنعون، وباسم الذين ينتزعون لأنفسهم مجالاً راسخًا فوق الأرض.. أعلن المعتزلة أن الإنسان هو الذي يخلق عمله، لا الله ولا أي سلطان آخر.. فالإنسان ليس جمادا تحركه يد المجهول (يد السلطان) وإنما هو كائن مريد، يملك أن يكون فعالاً لما يريد!

و اروّع ملوك أمية أول الأمر عندما تناهى إليهم أمر هذه الثورة على القدر.. الذي يحمي لهم استبدادهم الفاجر.. غير أن ثورة الفكر إذ ذاك لم تكن تستهدف أمية وحدها، وإنما كانت تعلن إرادتها الحرة في وجه كل سلطان يكابل العقل الإنساني.. كانت تقذف نارها في وجه الجامدين الذين يرهقون الفكر بتقديس السلف الصالح.. فأعلن المعتزلة أنه

لا قداسة لإنسان على الإطلاق حتى الصحابة، وأن (عليـا) نفسه، قد أخطأ.!

وفرحت أمية بهذا الرأي الذي يقوله المعتزلة.. ورأت في رأيهم ما يضعف الشيعة، ويخفف حدة العطف عليهم.

رأي الأمويون أن المعتزلة مهما يهاجموا معاوية فـإنهم يؤدون دون أن يشعروا خدمة للدولة، ما داموا يهاجمون عليا في الوقت نفسه، لأنهم يضعفون بهجومهم هذا دعوى الشيعة ونفوذهم على القلوب..!

ومن أجل هذا وحده لم تضطهدهم أمية..

وفي الحق أن المعتزلة لم يكن يعنيهم شيء مـن النـزاع حول بيت علي وبيت معاوية، وإنما كل همهم هـو تحريـر الإنسان المضطهد الممزق.. وتأكيد حقه في أن يعيش كريما، وتأكيد حريته في أن يختار لنفسه المصير.

وقد رأوا أن تقديس النصوص يؤدي إلى استنباط أحكـام تنزل أفدح الظلم بالناس، فدرسوا الأحاديث والرواة وأثبتـوا أن كثيرا من الأحاديث ليس صحيحا.. وطعنوا في رواية أبـي هريرة وأثبتوا عليه الزيف.. وهاجموا ابن مسعود، ورفضوا أن يعتمدوا على حديث رواه..

وهكذا أنزلوا الصحابة من سمائهم التي خلقها جمود أهل السنة.. ودرسوا تاريخهم وأخلاقهم وميولهم، وعاملوهم كبشر يجوز عليهم ما يجوز على البشر.. فهم يميلون مع المصلحة في بعض الأحايين..! وذهبوا إلى أبعد من هذا، فناقشوا أمانة عمرو بن العاص وعثمان بن عفان وحكموا على كلا الصحابيين بأنه سارق، أخذ لنفسه كثيرا من أموال الفيء!

وهكذا كان مسلك المعتزلة في نص الحديث قبل أن يفسروه؛ هو الشك في روايته!

فإذا ثبت لديهم صحة الحديث، أو تناولوا آية من القرآن، بحثوا في أسباب نزول الآية أو ورود الحديث، وبحثوا في العلة وفي الظروف التي أحاطت بالأمر كله، وبذلوا جهدا ليفسروا النص على غير ظاهر النص..

والمعتزلة هم الذين أبعدوا عن الفكر الإسلامي ما عرفه تاريخ الفقه بعد هذا باسم: التأويل، وهو صرف المعنى عن ظاهر النص.

وقد جعلوا العقل وحده هو الذي يحكم كل شيء.. هو الذي يلقي الضوء على معنى النص القرآني أو الحديث.. والعقل عند المعتزلة، ليس هو عقل الفرد المقدس الذي يعيش

فوق عقول الناس.. وليس هو العقل الرسمي الذي يحرّم ويحلّل كما تقضي مصلحة الحاكم.. وإنما هو عقل السواد.. العقل الذي ينطق باسم الأمة.. وباسم مصالح الأمة.

وبهذا الأسلوب وضع المعتزلة أساسا جديدا للمعرفة في الفكر الإنساني.. هو الشك.. ليكون سبيلاً إلى المناقشة الحرة، فاليقين الذي لا يعتوره ريب، وليكون الشك فيما بعد سبيلاً إلى اكتشاف حقائق علمية كبرى تقدم للإنسان قدرة فعلية على صياغة المستقبل.

ومن مأثور أقوالهم في هذا (لم يكن يقين على الإطلاق حتى صار فيه شك، ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد حتى يكون بينهما حال شك).

***

وقد اقتضتهم هذه الثورة أن يتعمقوا الآثار التي انتهت إليهم من الحضارات الأخرى، فتعمقوا الفلسفة اليونانية والفكر الفارسي.. وشارك هذا كله في تكوين عقلية متحررة على مر العصور، استطاعت أن تنجب لنا فيما بعد رجالاً كالجاحظ والنظّام.

وربما كان بعض غلاة الشكاك والمتطرفين من المعتزلة، قد أتاحوا لخصومهم الفرصة ليتهموهم بالخروج عن الدين، فقد شك بعضهم في آيات القرآن، (في سورة أبي لهب مثلاً)! ولكن الشيء الذي لا ريب فيه أن أئمة الاعتزال قد كابدوا كثيرا في سبيل الدفاع عن الإسلام، وتخليصه من الوثنية التي انحدرت إليه عبر الأجيال من عبادة الأصنام.. وثنية عبادة السلف!

وقد أثروا في الحياة الإسلامية؛ إذ ذاك أعمق التأثير.. فالتقط الشيعة كثيرا من أفكارهم، بل انضم إليهم بعض رجال الفكر من الشيعة، فزيد إمام الزيدية إحدى فرق الشيعة اختلف إلى واصل بن عطاء وتلقى العلم على يديه.

وربما كان هذا التأثر طبيعيا.. ذلك أن الفكر المعتزلي كان انعكاسا للفكر كله.. لفكر المجموع.. لفكر الشعب نفسه كما نعبر بلغة السياسة.

ونود هنا أن نجمل أهم تعاليم المعتزلة وأهم مبادئها الفكرية التي أثرت في العقل الإسلامي كله:

أولاً: أن عقل الإنسان قادر على أن يعرف الخير من الشر، وقد وضع العقل في الإنسان ليدير إرادته، وما دام

الإنسان يحاسب على ما ارتكب، فلا بد أن تكون له إرادة فيما يرتكب، وإلا لبطلت حكمة حسابه؛ إذ كيف يحاسب على ما لم يرده!؟

وقد اقتضى هذا المبدأ أن تكون للإنسان حرية الإرادة كاملة، وأن تكون له حرية الرأي، وحرية اختيار طريق حياته، هو وحده الذي يجب أن يختار وليس لسلطة أن

تلزمه. وعقل الإنسان يحب الخير لأنه خير لا لأن الشرع أمره بأن يحبه، فالشرع أو القانون لا يخلق صفة في شيء، وإنماهو يقر هذه الصفة، ومن أجل ذلك فما أنكره العقل فهو شر

ولئن ورد في استحسانه، إنه لنص مكذوب إن كان حديثًا، ويجب أن يؤَول قرآنًا.

ثانيا: يستتبع هذا أن الإنسان هو الذي يخلق عمله، الإنسان لا القدر أو الله، والله يحاسب على هذه الأعمال، وهو من أجل ذلك سمي بالعدل، والعدل ليس صفة في الله، فالله لا يوصف، وإنما هو ذات، والعدل هو ذات الله، ومن أجل ذلك سمي المعتزلة بأهل العدل أو أصحاب العدل، ورأيهم

هذا يقتضي أن يكون العدل – بما أنه هو الله – فوق كل شيء، وفوق كل سلطان.

ثالثًا: المنزلة بين المنزلتين، فالذي يقترف الكبيرة ليس كافرا قد قطعت بينه وبين الإيمان كل السبل، وهو أيضا ليس مؤمنًا، وإنما هو منزلة بين المنزلتين: بين الإيمان والكفر، هو فاسق!

وفي هذا اختلف الحسن البصري مع واصل بن عطاء فقال الحسن البصري: اعتزلنا واصل.

ويذهب كتاب التاريخ إلى أنهم سموا المعتزلة من أجل ذلك.

***

هذه التعاليم كانت ضرورة من ضرورات الفكر، الذي يعبر عن انطلاق روح الثقافة في وجه جمود أهل السنة والنصوص والحديث.

على أنه من الخطأ أن يعتقد أحد أن المعتزلة عاشوا بعيدا عن السياسة.

فهم لم يوغلوا في دقائق الخلاف بين علي ومعاوية كما فعل الشيعة والخوارج، ولكن سياسة الدولة نفسها كانت

تعنيهم، وما نظرية العدل والاختيار عندهم إلا انفجار الفئات المظلومة في وجه الدولة الظالمة.

ومن المستحيل أن نتصور أمة بأسرها تتلقى الحمم مذعنة ولا تشتغل بالسياسة، لأن السياسة صناعة يختص بها بيت معين أو أفراد معينون!

وبالفعل كان المجتمع العربي يشتغل بالسياسة، وكان الفكر المعتزلي هو المظهر الفلسفي للأهداف السياسية التي يريدها الشعب، ولم يكن الشعب إذ ذاك يريد إلا حرية كاملة، وإلا أن يسود العدل بين الجميع.

وكان يريد أن يحاسب الحكام على أعمالهم، وأن يختار هو هؤلاء الحكام، وكان يرفض أن تفرض عليه حكومات. ويرفض أن يقبل كل النظريات الجبرية التي تدعوه إلى الاستسلام واليأس.

ومن أجل ذلك فقد اعتنق نظرية المعتزلة كل الذي سخط على الدولة الأموية، وحتى الأمويون الذين سخطوا على الملك الغاشم؛ اعتنقوا هم أيضا آراء الاعتزال، لأنها كانت تزلزل ركن العرش إذ ذاك – فيزيد بن الوليد – اعتمد على

المعتزلة في حرب الوليد، وقاد له عمرو بن عبيد جيوشه، فانتصر على الوليد وحفظ يزيد هذا للمعتزلة.

وكان من الخلفاء العباسيين ثلاثة من المؤمنين بالفكر المعتزلي، وكان المأمون هو أشهرهم. غير أن الفكر المعتزلي لم يكد يظفر بالسلطان، ولم يكد خلفاء من أنصاره يمكنون لأنفسهم في الأرض حتى ساروا في الناس سيرة ظالمة، وأهدروا كل ما كافح من أجله المعتزلة الأوائل، فضرب المأمون خصومه في الفكر، وعذب ابن حنبل، وسار المعتصم على سياسته في فرض الضرائب وشئون الاقتصاد كسياسة الأمويين، وهكذا خان فقراء الأمس أصدقاءهم الفقراء عندما استولوا على السلطة.

ثم أخذوا يعصفون بحريات خصومهم السياسيين ويعذبون أعداءهم في الفكر، وخانوا ثورتهم، وتقديسهم لحرية الرأي، وأهدروا كل ما كافحوا من أجله، فغنموا المال، وأساءوا إلى العدل، ووزعوا المناصب، وملأوا السجون بمن يخالفونهم الرأي.

كل هذا أثار ثائرة الناس ضد المعتزلة، وشعر الناس أن المعتزلة تنكروا لكفاحهم ولضحاياهم وخانوا دم الشهداء.

وعاداهم الأحرار، وفي الوقت نفسه كان الرجعيون

والجامدون ما يزالون يحتفظون في أعماقهم بمرارة العداء، وحانت لهم فرصة الانتقام.

ووقف المعتزلة يتلقون الضربات من أهل اليمين ومن أهل اليسار.

ففي الأطراف البعيدة ثار (بابك)، وأقام جمهورية في أذربيجان، وبدأ يقرع أبواب بغداد، ومات المأمون مهموماً، لأن جيوشه اندحرت أمام جيوش الثورة الجديدة.

وفي بغداد استولى الرجعيون على الحكم، وبدءوا حملاتهم على المعتزلة، وجاء خليفة (سني) ليشدد عليهم النكير.

وصفق الناس له وهو يعذب المعتزلة، ويملأ بهم السجون، وتطوع الناس بتعذيبهم، فما عثروا على واحد من المعتزلة إلا قبضوا عليه، أو رجموه بالطوب والمحابر، ونبذوه من الأماكن العامة ولطخوه بالأوساخ.

وهكذا سقط المعتزلة، ولم يجدوا من يذرف عليهم دمعة، فأصحاب اليمين من أهل السنة شامتون بما عذبوا، وأصحاب اليسار الذين حافظوا على روح الحرية في الفكر المعتزلي، أخذوا ينزلون بهم الضربات ليقصموا ظهور الذين خانوا شرف الفكر، وأهدروا جلال الحرية وأضاعوا أجمل ما نادى

به المعتزلة.

واختلط أحرار المعتزلة بأحرار الشيعة، وبزغت منهم ثورة فكرية جديدة في أذربيجان، ثورة كونت فيما بعد دولة اشتراكية، وكونت في تراثنا رجالاً كابن سينا وأبي العلاء.

وأثبت التاريخ العربي للأجيال القادمة، أن الذين كانوا أحرارا ذات يوم، لن يكسبوا شيئًا على الإطلاق، إذا هم

تنكروا لمبادئهم الأولى.

لن يكسبوا أعداءهم الرجعيين، وسيخسروا تأييد الأحرار الحقيقيين!

وهذا هو ما حدث للمعتزلة بالفعل، فقد كانت الرجعية الحاكمة تضربهم في بغداد، بينما انفجرت الثورة الجديدة في أذربيجان، ترسل حممها على السلطة الرجعية الحاكمة عصرئذ، وتعصف بخونة المعتزلة!

وعندما كان المعتزلة يتساقطون تحت السنابك، ويقذفونفي غيابات السجون، لم يبكهم أحد، ولم يفدهم كل ما كسبوه من جاه ومال ومناصب.

بل أطلقت الشعوب العربية ضحكاتها الشامتة، أن ذوقوا بعض ما كنتم تصنعون!

الدين ... والثورة

ما هو الإسلام..؟ أهو دين أم ثورة..؟

إن الذين يطرحون هذا السؤال لا يقدرون الإسلام حق قدره، فما ينبغي أن يضعوا الثورة في مواجهة الدين، أو يعارضوا الدين بالثورة، إن الظروف التاريخية التي نشأ فيها الإسلام، والدور الاجتماعي الذي أداه خلال تلك الظروف، تحدد لنا ماهية الإسلام: أدين خالص هو من هذه الأديان التي ظهرت خلال ظروف تاريخية بعينها، وأدت دورها وانتهى الأمر، أم أنه ينقسم إلى ما هو دين فحسب، وإلى ما هو ثورة.

لقد جاء الإسلام ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، جاء يدعو للتي هي أقوم، جاء لينشئ نظاما اجتماعيا يقوم على العدل والمساواة، ويحرر الإنسان من طغيان الظالمين، جاء يفرض للفقير وللسائل والمحروم حقاً معلوما في أموال الأغنياء، جاء يقيم مجتمعا لا فضل فيه لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعي، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجْزاه الجزاء الأوفى، جاء يقيم أمة واحدة كالبنيان

المرصوص يشد بعضه بعضا، أمة يصبح العمل فيها هو الذي يحدد قدر الإنسان، والتقوى هي مقياس الفضل.

وإذن فالإسلام ثورة على أوضاع متخلفة، ثورة غيرت أسس المجتمع، وأشكال العلاقات الاجتماعية، ولكنها ثورة تنبع من القواعد التي قامت عليها أركان الدين: من شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا وهذه العبادات التي هي أركان الإسلام، ليست أسرارا أو شكليات، ولكنها وظائف اجتماعية تنبع منها قواعد تعبير المجتمع كله، وهي من أجل ذلك قواعده ثورية، وإذن فالإسلام الدين، هو الإسلام الثورة، والثورة والدين ليسا وجهين لعملة واحدة، ولكنهما عنصران في جوهر واحد، تنبع الثورة من الدين في الإسلام كما ينبع الضوء من الشعلة، ذلك أن الإسلام عبادات ومعاملات، وفي العبادات والمعاملات أركان ومبادئ، وقيم تواجه احتياجات التقدم الإنساني، وتداول الأيام بالبشر، مهما تختلف الظروف وتتجدد الأحوال، وتتعدد الأقضية والوقائع.

إن الشعور بالحرية الذي يضيء جنبات المؤمن الورع ينبع من ثقته بالعدل، ومن إيمانه بأنه قوي بطاعة الله، غنى بالإيمان، ومن هنا تنبع فضائله الإنسانية، ومجتمع تسوده هذه الفضائل، قادر على أن يجعل الحياة أكثر رغدا، وأحفل بالجمال والمتاع.

إن الصيام وهو أحد أركان الإسلام، يمنح الصائم المؤمن شعورا متفوقا بأن في خضوعه الله عزة، وأنه إذا قهر نفسه، واستغنى عن كل ما يشتهيه، لقادر على أن يقهر كل ما يستعبده، ومن هنا تنبع حريته، وعظمته أيضا، إنه قادر على أن يتخذ موقفه الثوري من كل ما يعوق التقدم الإنساني.

وهكذا تنبع الثورة من الدين، وهكذا يصبح الإسلام هو الحقيقة القادرة على مواجهة كل الأباطيل، والآية المبصرة التي تمحو كل الظلمات، وهكذا تستطيع مبادئ الإسلام أن تؤدي الدور التاريخي لها في أيامنا هذه والأيام القادمة كما أدته أول مرة، وكما أدته عبر التاريخ الإنساني.

وسأحاول هنا أن أعرض بعض المواقف الثورية التي اتخذها في تاريخنا رواد ومفكرون عظام، لتسود مبادئ

الإسلام ديناً ثوريا، وتصوغ عصرا جديدا تسوده الحرية والعدالة والمساواة، ويضيء فيه الحق والخير والجمال.

إن هذه المواقف الثورية هي الانتفاضات والومضات، هي التي صنعت للبشرية تقدمها عبر التاريخ، هي التي شاركت في صياغة حضارة مزدهرة، وهي – على الرغم من كل شيء – ما زالت تملك طاقة الإبداع والقدرة على أن تصنع

التقدم. إننا حين نلتفت إلى الماضي نتخذ منه العبرة، ونحن نمضي إلى المستقبل، لنجعل أيامنا القادمة امتدادا للماضي الباهر، ولنعني المستقبل بكل الروعة التي عرفناها في الأيام

المجيدة الماضية.

***

حرية الرأي سنة

يحمل الإسلام في أطوائه كل عناصر بقائه، ويتضمن طرق استنباط الأحكام الجديدة من القواعد الأصلية، وهكذا يتمكن المسلمون مهما يختلف بهم الزمان والمكان من أن يوجهوا ما تطالعهم به الحياة المتجددة أبدا من مسائل ومشكلات.

لقد كان محمد ❐ معلما عظيما فلم تعرف الإنسانية نظيرا له بين المعلمين العظام، ما كان أبا أحد من رجال قريش، ولكنه كان رسولا نبيا للإنسانية كافة أوحى إليه أن يهدي الناس إلى صراط مستقيم.

جاء بالقرآن الكريم، فيه تفاصيل كل شيء، ومع ذلك فقد علَّم الناس أن يفكروا، وألا يحملوا الكتاب وما أنزل إليهم كالحمار يحمل أسفارا.

لقد أوحي إليه أن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، وأنه تعالى أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم أول إنسان، فسجدوا، وأنه جلَّ شأنه جعل الإنسان خليفة له في الأرض، وعلَّمه الأسماء كلها، أوحى إليه أن الله يأمر الناس بأن يتدبروا في

خلق السماوات والأرض، وبأن يتـأملوا فيمـا حـولهم وأن يفكروا وأن يواجهوا الرسول بآرائهم وأفكارهم، لقد جـاءهم من عند الله يهديهم إلى صراط مستقيم، هـذا حـق، ولكـن أمرهم شورى بينهم والرسول مأمور بأن يشاورهم في الأمر.

وهكذا يعلم الرسول كل الناس من حوله ومن بعـده، أن سياسة الحكم هي ثمرة الحوار بين الحـاكم والمحكـوم، وأن أمر النـاس لا يمكن أن يكون لرجل واحد ولو أوتـي الكتـاب والحكمة، وكان رسولا نبيا.

ويؤكد محمد ❐ هذا المعنى فينبه النـاس إلى أنه بشر، وأنه ليس إلا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة، فليس له حق إلهي على النـاس، إن هو إلا بشر يوحى إليه، وهو قد لا يجد كـل شيء في الكتاب المنزل، فيجتهد رأيه، وإنــه ليقـول: "أنــا أقضى بينكم بالرأي فيما لم ينزل فيه الوحي"، ولكنـه ينبـه النـاس إلى أن الخطأ يجوز عليه هو النبي المرسل وهو مـن أجل ذلك يحذر أصحاب البـاطل مـن أن يخـدعوه ببريـق الأكاذيب فيخطئ في الحكم، إنه ليقول: (إنما أحكم بالظـاهر وإنكم لتخصمون إلي، ولعل أحدكم يكون ألحن بحجتـه مـن

بعض؛ فمن قضيت له بشيء من مال أخيه، فإنما أقطع له قطعة من النار).

لقد حكم بالرأي في كثير مما واجهه، بعد أن شاور في الأمر، ومن هذه الأحكام ما عدل هو نفسه عنه بعد أن تبينت له في الأمر وجوه جديدة، ومن هذه الأحكام ما عاتبه الله عليه، ونزلت فيه آيات منها: " عفا الله عنك لم أذنت لهم "،

" ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ".

وشجاعة النبي في مواجهة الخطأ درس لكل حاكم وحكيم من بعده، لقد كان يحض عماله على أن يفكروا ويحكموا برأيهم إن لم يجدوا الحكم في الكتاب أو السنة، وهذا هو منطلق الرأي الحر، وإذن فاتباع السنة ليس في تنفيذ ما قاله النبي أو في محاكاة أفعاله وسلوكه فحسب، ولكنها في الاجتهادي بالرأي، لأنه استنبط أحكاما جديدة قياسا على ما أوحي إليه في القرآن من أحكام، وهو شرع للمسلم أن يفكر ويجتهد برأيه وأن يعدل عن الخطأ إلى الصواب إذا اكتشف أنه أخطأ، وهذا هو أساس حرية الفكر في الإسلام، سئل عليه السلام: (ما الحزم) فقال: "تستشير ذا الرأي ثم

تمضي إلى ما أمرك الله به"، وهو القائل: "ما شقي عبد بمشورة ولا سعد عبد استغنى برأيه".

من هذا الموقف تنفجر في مبادئ الإسلام طاقاتها المتجددة فلا تتجمد النصوص، ولا يتحول الإسلام إلى كلمات أو طقوس، بل يصير إلى حركة دائبة مبدعة تدفع تيار الحياة.

***

لست بخير من أحدكم

لم يكن أحد يستطيع أن يصدق.

وحسب كبار الصحابة أنها فتنة، وأن رجالاً يختلفون النبأ ليكيدوا به للإسلام، وأقسموا أن يضربوا أعناق رجال أذاعوا هذا النبأ العظيم.

ولكن النبأ كان حقا وصدقاً فإن محمداً قد مات، واعترت المدينة البيضاء غاشية الحزن، وانعقدت الألسنة، وتصايح الناس: (كيف يموت) كيف وهو نبي الله.؟

ووقف أبو بكر يخطب الناس وييسر عليهم ما هم فيه مختلفون، " **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا** ۞ صدق الله العظيم، لكأنهم لم يسمعوا قول الله هذا من قبل، وهم مع ذلك مسلمون الله يحفظون قرآنه.

وانطلقت الكلمات ندية بدموع الصديق الممزق (من كان

يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فـإن الله حي لا يموت).

وكان على الصديق أن يواجه الصدع الكبير، وأن يثبت الأرض تحت أقدام الدين الجديد بعد الزلزلة التي أحدثتها وفاة الرسول، وانتخب المسلمون "أبا بكر" خليفة لرسول الله، بايعه أول الأمر عمر وعلي وأبو عبيدة وعثمان وأبو ذر، وتبعهم الآخرون.

وأقبل أبو بكر بحمل الأمانة التي أشفق منها، وتمنى أن ينهض بها أحد غيره، وأبو بكر تقي ورع أواه حليم.

ووجد أن رسول الله كان قد جهز جيشًا إلى الروم، لينزل به الرعب في قلوب أعداء الله، وليحرر به الأردن وفلسطين، وليحرر المستضعفين من طغيان السادة، وينشر دين المساواة في أرجاء الدولة التي كانت قد جعلت من رأس "يحيي" النبي مهرا "لسالومي" البغي.

ولكن الرسول لحق بربه قبل أن يتحرك الجيش، ورأى عمر بن الخطاب ألا يتحرك الجيش، وأن يبقى في المدينة حارسا لها، فلا ينقض عليها عدو، ولكن أبا بكر رفض وأقسم أن ينفذ الجيش تأكيدا لهيبة الإسلام حتى لا يظن أحد به الضعف بعد وفاة النبي وقال لعمر: (والله لو علمت أن

السباع تجر برجلي إن لم أرده ما رددته، ولا حللت لواء عقده رسول الله).

وحين اقترح عليه عمر أن يغير أسامة لأنه صغير السن، أمسك أبو بكر بلحية عمر وصاح فيه "ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه".

وهكذا استمسك أبو بكر الصديق بسنة محمد والتزم بسيرته، وأعلن في الناس: (إن الله اصطفى محمدًا على العالمين وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع ولست بخير من أحدكم، فراعوني، فإن رأيتموني استقمت فتابعوني، وإن رأيتموني زغت فقوموني، وإن رسول الله ﷺ قبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها..)

إنه ليتبع الرسول فيما كان الرسول يأخذ من الأمور ويدع، يتبع الرسول في كل التعاليم التي أوحي إليه بها، وفي كل ما اهتدى إليه الرسول باجتهاده ورأيه.

يتبعه في أن يجتهد هو نفسه ويستنبط؛ ويحكم بالرأي، وبهذا يمنح الشريعة الجديدة قدرة على أن تتجدد، بقدر ما تتغير الظروف وأحوال الناس، وهذا هو المنطلق الثوري لأحكام الإسلام.

والصديق التقي الورع بعد هذا كله متبع الرسول الكريم في أمر العدل، فهو يرجو المحكومين بأن يطالبوه بدفع الظلم عنهم، حتى لو كانت ضربة سوط فما دونها، لأن هذا الظلم دين في عنقه للمظلوم أمام الله.

وهو متبع الرسول في أمر الشورى، وحق المحكومين في حساب الحكام، وهذا كله هو قوام المجتمع المتقدم.

***

في الحرب والسلام

استطاع أبو بكر أن يؤكد في الأعماق من كل قلب روعة المبادئ الثورية والإنسانية التي يحملها الدين الجديد. كانت مسئولية حكم الدولة الجديدة بعد وفاة الرسول ❐ أمانة ثقيلة

حقا. ولكن طريق الاستمرار أمام أبي بكر رضي االله عنه كان

هو الإتباع.

لقد كان محمد ❐ رسولاً نبيا تعصمه النبوة من التماس بهارج العظمة، ومن كل ما يثير الزهو في نفس الإنسان، وقد خلق الإنسان ضعيفًا.."! كانت من حوله على أطراف الجزيرة دول ودويلات تثقلها أبهة المظاهر والأشكال الملكية، ولكن النبوة عصمت النبي الحاكم فلا حيلة للحاكم الجديد، وهو أول خليفة له إلا أن يتبع طريق النبي.

وهكذا قرر أبو بكر أن يعيش أقل فرد في الأمة حظا من مال، هو الذي كان تاجرا غنيا من قبل، وبذل ماله في سبيل الإسلام.

وبدلاً من أبهة الملك، اتخذ الخليفة الجديد هيئة الإمام الورع، ونزل إلى الأسواق يعمل ليعيش بكسب يديه، لولا أن عليا بن أبي طالب وعمر بن الخطاب أقنعاه بأن للخلافة عملاً يستحق عليه أجرا، وحين أرسل جيش أسامة إتباعا لرسول الله ، كان عمر بن الخطاب جنديا في الجيش تحت قيادة أسامة، وكان أبو بكر في حاجة إلى عمر، ليبقى إلى جواره مستشارا له، وكان في وسعه أن يصدر أمره هو الحاكم الجديد بأن يبقى عمر، ولكنه ذهب إلى أسامة يودعه هو والجيش ويمشي إلى جواره وأسامة راكب، فقال له أسامة: والله لتركبن أو لأنزلن، فقال أبو بكر: والله لا تنزل ووالله لا أركب، وما علي أن أغبّر قدمي في سبيل الله، فإن للمجاهد بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له وسبعمائة درجة ترفع له وسبعمائة خطيئة ترفع عنه، ثم صمت قليلاً، وقال: لو رأيت أن تعينني بعمر فأفعل.

وعندما أذن أسامة له بعمر وقف أبو بكر ينصح الجيش ويؤسس قواعد في الحرب لم يستطع عالمنا المتحضر أن يحصل إلى مستواها الإنساني بعد، وقد مر على هذه القواعد نحو أربعة عشر قرنًا.

قال أبو بكر للجيش: "لا تخونوا ولا تغلـوا ولا تغـدروا ولا تقتلوا طفلاً صغيرا ولا شيخاً كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقتطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شـاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له".

هكذا، دعم خليفة رسول الله مبادئ رسول الله في احترام حرية العبادة، في التعامل، في التعامل الإنساني كما ينبغي أن يكون رغم ضراوة الحرب، ثم عاد أبو بكـر يـدير شـئون الدولة، وواجه مشكلة المال، كيـف يـنهض الخليفـة الأول بشئون الأمة؟ كيف ييسر الحياة على الناس؟ كيـف يصـلح أمور المعاش للمسلمين لتصلح القلـوب وتطمـئن النفـوس ويعكف الجميع على العمل وتصفو الأعماق للحب وحده؟ ما كان أمامه إلا أن يتبع رسول الله، بكل ما خلفه الرسول لـه وللدنيا كافة من قواعد إنسانية وثورية.

ورأى أبو بكر أن يقسم المال بين الناس علـى السـواء، فلكل حاجة يسأل عنها ولي الأمر وعليه أن يشبعها، وهكـذا سوى أبو بكر في قسمة المال بين الحر والعبد، والسابقين إلى الإسلام واللاحقين، والذكر والأنثى، فقال له أحد الصـحابة:

"يا خليفة رسول الله، إنك قسمت هذا المال فسويت بين الناس ومن الناس أناس لهم فضل وسوابق وقدم، فلو فضلت أهل السابقة والقدم والفضل؟".

فقال: أما السابقة والفضل والقدم فأنا أعرفها وإنما ذلك شيء ثوابه على الله، وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة.

وهكذا أكد أول الخلفاء الراشدين إنسانية الإسلام وعدالة الإسلام وثورية الإسلام في الحرب والسلام.

***

الجهاد دفاعًا عن حق الفقير

نزل بأبي بكر ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها، كما قالت عنه ابنته عائشة أم المؤمنين، فقد "اشْرَأَبَّ النفاق بالمدينة، وارتدت العرب قاطبة وصار المسلمون كالغنم السائبة".

على أن الذين أضمروا الردة، لم يكادوا يرون جيوش المسلمين تزحف إلى أرض الروم بقيادة أسامة حتى أخذتهم هيبة الإسلام وخافوا المسلمين، وتناجوا فيما بينهم "لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم".

على أن الحرص على الرجعة إلى وراء ما لبث أن تغلب، فأعلنت معظم القبائل الردة، وظهر في هذه القبيلة أو تلك رجال ونساء يدعون النبوة، ويلفقون كلامًا مسجوعا يعارضون به القرآن، وينشئون تعاليم ترفع عن العرب التكاليف والأوامر والنواهي التي شرعت لعلاج نفوسهم، ولإقرار العدالة فيما بينهم وإنشاء المجتمع المتقدم.

كانت تلك القبائل حديثة العهد بالإسلام، وكان من الأعراب من أسلموا ولم يدخل الإيمان في قلوبهم بعد، وكان

أغنياء القبائل هم السادة فيها والحكام المطلقون، ففرض عليهم الإسلام أن يتشاوروا فيما بينهم في كل أمر، وجعل مناط السيادة هو العمل الصالح لا وفرة المال أو علو الحسب، فخير الناس هو الأتقى لا الأغنى.. وجعل في أموال الأغنياء ذلك الحق المعلوم للسائل والمحروم.

وأصبحت الزكاة التي فرضها القرآن وفصلها النبي، ضريبة واجبة الأداء على كل قادر.. وتوعد القرآن بالويلات هؤلاء الذين لا يؤتون الزكاة.

ومن أجل ذلك ضاق سادة القبائل القدامى بالدين الجديد، وانتهزوا فرصة موت النبي وأعلنوا الردة عن الإسلام، ليرجع الزمن إلى وراء، ويعود العهد الذي كان الغنى فيه يستبد بالفقير، وكان المرء بما يملك لا بما يعمل.

وسير أبو بكر الحملات ضد المرتدين وقاد هو نفسه جيشًا فرجاه علي بن أبي طالب أن يبقى في المدينة ويولي غيره أمر الجيش قائلاً له: "لا تفجعنا فيك وارجع إلى المدينة فو الله لو أصبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبدا". غير أن أبا بكر مضى على رأس الجيش حتى غلب أهل الردة فيما حول المدينة، وعاد إليها يوالي إرسال الإمدادات لجيوش

المسلمين التي تطارد أهل الردة من مختلف القبائل البعيدة وجاء كثيرون من المرتدين يعلنون توبتهم ويرجون أبا بكر أن يقبل منهم العودة إلى الإسلام، وأن يعفيهم من الزكاة. قالوا له: أما الصلاة فسنصلي، أما الزكاة فو الله لا تغصب أموالنا منا أبدا.

ورأى بعض الصحابة أن يقبل الخليفة هذا من التائبين، ليجتاز الدين الجديد ما يعرض له من محنة، ونصح عمر للخليفة بأن يتألف الناس ويرفق بهم ويكف عنهم ويرفع عنهم الزكاة؛ ولكن الخليفة عنَّفه "رجوت نصرتك فجئتني بخذلانك، أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام؟" ثم خطب في الناس: "والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، وإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله لجاهدتهم عليه، والله لو خذلني الناس كلهم لجاهدتهم بنفسي".

وهكذا انطلق الخليفة الشيخ التقي الورع، يقود بنفسه الحملات ضد من امتنعوا عن إيتاء الزكاة، حاربهم كما يحارب الكافرين، لأنه رأى في الامتناع عن إيتاء الزكاة إخلالاً بركن جوهري وأساس من أركان الدين الجديد.

وهكذا شرع أبو بكر للمسلمين أن يجاهدوا دفاعا عن حق الفقراء في أموال الأغنياء، فالزكاة ضريبة على الغني وهي حق خالص للأمة.

وانتصرت جيوش المسلمين على أهل الردة، وجاء أهل الردة يدفعون الزكاة، وهم صاغرون آخر الأمر.

وأخذ عمر يتقبل رأي أبي بكر وهو يقول له باكيا معتذرا "إنا فداؤك، لولا أنت لهلكنا".

***

العلل والأحكام

كان عمر قد أدرك أن الزكاة ليست صدقة يؤديها المـرء مختارا، وإنما هي ضريبة مفروضة، وأدرك أن الله تعـالى يقرنها بالصلاة دائما في كل ما أنزل على نبيه مـن قـرآن، ليؤكد أنها أيضا حق الله، كالصلاة.

وقد فصل الرسول ❐ قواعـد إيتـاء الزكـاة، وقواعـد توزيعها، وكانت الزكاة، والعطاء، والصدقات تـوزع بـين الفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم، وهذا هو ما فصله القرآن.

ولكن عمر وجد على عهده أن النص لا يتعلـق بتحليـل أو تحريم، ومن أجل ذلك فينبغي ألا يفهم على ظاهره.

من الحق أن الرسول سار على تطبيق هذا النص ومـن بعده سار أبو بكر، فنال المؤلفة قلوبهم نصيبا متسـاويا مـن الصدقات وأموال الزكاة والفيء، كان ذلك والدعوة للإسـلام في مطلعها والشريعة الجديدة في حاجة إلى بعـض رجـال دخلوا في الإسلام حديثًا، وأرادوا أن يستأثروا بشـيء مـن شرف، ولهم إذ ذاك نفوذ وكلمة مسموعة في قومهم.

ولكن الإسلام قد أصبح قويا، ولم يعد في حاجة إلى أن يصطنع مثل هذه القلوب.. ربما احتاج إلى تأليف قلوب جديدة من البلاد المفتوحة، ومن أجل ذلك فالأمر كله يحتاج إلى تقدير جديد، وأحكام جديدة.

وهكذا رأى عمر أن يتآلف قلوب بعض الذين يحتاج إليهم الإسلام من بلاد الفرس والروم، فما أن جاء الهرمزان إلى المدينة، وأعلن إسلامه، حتى رأى عمر أن يفرض له عطاء خاصا ليتآلف قلبه، ولم يجد في ذلك حرجا.

أما الذين تآلف الإسلام قلوبهم من العرب على عهد الرسول وأبي بكر، فقد رأى عمر أن الإسلام في غير حاجة إليهم بعد، فقد توطدت أركانه في الجزيرة العربية، ولهذا لم يعط رجالاً كأبي سفيان ما كانوا يتمتعون به من عطاء، ولقد جاءه رجال من أشراف القبائل طمعا في قطعة أرض وكتب لهم أبو بكر عقدا بها ليتألف قلوبهم، وليغريهم بالوقوف إلى جانبه، فمزق عمر هذا الكتاب، ورفض أن يعطيهم هذه الأرض، وقال لهم: "إن الله أعز الإسلام وأغناه عنكم، فإن ثبتم إليه، وإلا فبيننا السيف".

وهكذا ساوى المؤلفة قلوبهم، وغيرهم من العرب، فقد تغيرت الظروف التي حتمت بذل العطاء لهم، وبهذا الفهم الذي قدمه عمر بن الخطاب من أن كل حكم يرتبط الامتثال له يتوافر الحكمة منه، بهذه الجسارة في تفسير النصوص تجددت فيها الطاقات.

***

الملكية.. أحق هي ... أم وظيفة؟

هل الملكية حق مطلق، فالمالك يصنع ما يشاء بما يمتلك، أم أن الملكية وظيفة اجتماعية يستفيد فيها المالك، بما يمتلك في حدود مصلحة الأمة، وبالقدر الذي تتحقق به المنفعة العامة؟

هذا هو السؤال الذي ما زال يحير القانونيين حتى عصرنا هذا، عساهم يتفقون على جواب، ولكن الفكر الإسلامي قد أجاب على هذا السؤال منذ عهد بعيد، فعندما كان إجماع الفكر في العالم على أن الملكية حق مطلق، فالمالك ينتفع بملكيته بلا حدود، وهو حر التصرف فيها، فمن يملك أرضا يملك أن يمنع غيره من المرور فيها أو حتى من النظر إليها.

كان عمر بن الخطاب، بفهم متقدم لنصوص القرآن قد استنبط من الآية التي جاء فيها (ونحن الوارثون) استنبط من هذه الآية أن الله استخلف الإنسان في الأرض، ليسعى فيها بالخير، أي ليعمرها وتنتفع بها البشرية، وبعد ذلك (يرث الله الأرض ومن عليها).

وإذن فحق الملكية ليس حقا مطلقاً، وإنما هـو مشـروط بتحقيق مصلحة الأمة.

وإذن فالمالك لا يستطيع أن يفسد ما ملكه أو يتصرف فيه كما يشاء، فهو مستخلف عليه، وتتعلـق بالمالـك واجبـات الأمين: ألا يتلف ما يمتلكه، وأن يوجهه للخيـر العـام، وأن يحـ ّنيه لتزداد غلته، وعليه آخر الأمـر أن يقبـل الارتفـاق الناشئ على ما يمتلك لأفراد غيره في المجتمع ثم للمجتمـع كله.

وإذن فالملكية وظيفة اجتماعية، والمالك مسئول عـن أداء هذه الوظيفة بما يحقق مصلحة الأمة جميعا، المالك ليس سيد ما يملك، ولكنه موظف بما يملك.

وقد روى أن رجلا ًجاء إلى عمر بن الخطاب شاكيا مـن أنه أراد أن يجري قناة من أرضه إلى النهر، وكـان يتعـين على هذه القناة أن تمر في أرض جاره، وكانت القناة لازمـة لري الأرض، ولكن الجار أبى، فقال عمر للجار (لِـمَ تمنـع أخاك ما ينفعه وهو لـك نـافع تشـرب بـه أولا ًوآخـرا، ولا يضرك)؟

قال الجار: (لا والله).

قال عمر: "والله ليمرن ولو على بطنك".
وأمر عمر الجار أن يترك صاحب المصلحة يجري القناة إلى النهر عبر أرض ذلك الجار، وهكذا شرع أن الملكية الخاصة محددة بمنافع الغير.

وهكذا شرع عمر حق ارتفاق على أرض الجار، وألزمه بأن يسمح لصاحب المصلحة بمرور الماء في أرضه ما دام هذا الأمر لن يؤذيه أو ينقص من قيمة أرضه، وهو بهذا يشرع للناس أن الملكية وظيفة اجتماعية لا حق مطلق مستبد، وهذا هو ما تسير عليه أحدث التشريعات الثورية والمتقدمة في كل بلد يقوم فيه نظام الملكية الفردية للأرض.

***

الملكية... مصلحة عامة

جاء الإسلام عندما كان القانون الروماني هو الذي يسود العالم المتحضر، كانت مبادئ القانون الروماني تمثل تطورا حضاريا كبيرا، وكانت تلك المبادئ تقسم الملكية إلى أموال وأشخاص، ذلك أن القانون الروماني كان ينظم علاقة المالك بعبيده، وكانت في نصوصه مواد كثيرة عن العبد من حيث هو شيء يمتلك، فالعبودية كانت نظاما سائدا في الحضارة الرومانية، وفي الحضارات التي سبقتها.

من هنا نستطيع أن نفهم الثورة التي حدثت في نظام الملكية منذ جاء الإسلام، إنه لم يقيد الملكية بحقوق ارتفاق أو انتفاع فحسب، بل تناول أصل الحق نفسه وموضوعه.

فبعد أن كان المالك حرا في عبيده يتصرف فيهم كما يشاء، جاء الإسلام فقيد المالك في تصرفاته بما يمتلك من أشياء، وجعل حسن التصرف شرطًا لصحة التصرف، جعل تحقيق المنفعة العامة قيدا على طلاقة التصرف الشخصي في الأشياء المملوكة، أما الإنسان – فهو سيد الكائنات، ولا ينبغي أن يكون شيئًا من الممتلكات.

والإسلام، جعل للعبد ما للسيد من حقوق، وقد كان بـلال عبدا فحرره الإسلام وجاهد واستبسل في جهاده، وشهد مواقع كثيرة على أعداء الإسلام أبلى فيها أحسن البلاء، وجهد فـي نشر الدعوة، وأصبح مثالاً طيبا للمسلم المؤمن الصالح.

والإسلام إذن كرم الإنسان، فحرره من العبودية، وضـن به أن يكون شيئًا يمتلك وهو خليفة الله في الأرض، والإسلام وضع للملكية قواعد ينبغي حين نقدر خطرها أن نقدر الظروف التي جاءت فيها، فقد جاءت والقانون الروماني هو السائد فيما هو متحضر؛ إذ ذاك من بلاد العالم، والقانون الروماني؛ إذ ذاك يقر نظام العبودية ويعتبر العبيد ممتلكات، يتصرف فيها مالكها كما يهوي، وليس لأحد عليه سلطان.

فالإسلام لم يحرر العبيد ليجعلهم متساوين بالسادة فحسب، ولكنه قيد تصرف المالك في الشيء الذي يملكه، وشـرط تحقق مصلحة الأمة.

والإسلام حرم الاستئثار بالملكية، حـرم أن ينفرد أحد بامتلاك ما يحتاج إليه الآخرون، لقد حض على السعي فـي طلب الرزق، ونظم الحماية لحقوق الإنسان فيما يكسب، ولكنه رفض الاحتكار، فالمحتكر ملعون بـنص الحديث

الشريف، ذلك أنه يخالف مبادئ رئيسية من أصول الإسلام: ألا يثرى أحد بإفقار غيره، وألا يتحكم أحد في حاجات الآخرين، وألا يكون لمالك سلطان مطلق على النفس، فذلك لمالك الملك وحده، ذلك الله تعالى.

والإسلام حرم الانفراد بملكية ما هو ضروري لمعاش الأمة كلها، حرم امتلاك مصادر الثروات وأدوات أو وسائل الإنتاج الكبرى إن استعملنا أسلوب العصر.

كانت مصادر الثروات ووسائل الإنتاج الكبرى ومصادر الطاقة عندما جاء الإسلام، هي المراعي والماء والنار. فالمجتمع مجتمع بداوة، الثروة فيه إبل وضأن ونحو ذلك، وهي تعتمد في حياتها على المراعي والماء، ومصدر الطاقة هو النار فحرم الإسلام الاستئثار بملكية المراعي والماء والنار، وحض الإسلام على أن تكون الممتلكات من هذا النوع للناس على السواء، "الناس شركاء في الماء والكلأ والنار" هذا هو الحديث الشريف.

وعلى هذا الأصل يجب أن يشترك كل الناس في ملكية كل ما هو ضروري لصلاح المجتمع، وكل ما قد تدعو الملكية الفردية فيه إلى التحكم والتسلط والإضرار أو الإثراء

باستغلال حاجات الناس، أي أن أدوات الإنتاج الكبرى يجب أن تكون ملكا للأمة، وهذا هو ما حلم به الفلاسفة بعد قرون وثارت في سبيله الإنسانية في هذا القرن العشرين.

***

من اضطر غير باغ ولا عاد

حتى الأوامر والنواهي التي تتضمنها النصوص القرآنية أو الأحاديث النبوية، لم يجعلها الإسلام فوق مجال العقل، بل إنه على النقيض طالب ذوي الأبصار بأن يفقهوها ويتدبروا ما فيها؛ بحيث يمتثلون لها مدركين لحكمتها وعلتها مستبصرين بأهدافها، وإن كانت تتعلق بالتحليل والتحريم.

ذلك أن الإسلام يرى الإنسان هو العقل الذي يتدبر والقلب الذي يؤمن واليد التي تعمل، هو الجوارح والحواس، " **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ".

وكان علي بن أبي طالب يسمى الضمير (عين الله)، وكان يحض الناس على أن يملأوا أعماقهم بنور العلم؛ كيلا يصبحوا وقلوبهم غفل صم بكم عمي فهم لا يبصرون.

وكان عمر بن الخطاب – كعلي – متبعين آثار النبي وأبي بكر من بعده، كانا يجهدان جهدهما في فهم علل الأحكام، وفي تفسير النصوص بما يحقق المقصود منها ويؤكد روحها والحكمة فيها.

وكان هذا كله تحريرا لنصوص الشريعة مما قد يهددها من جمود تتعرض له الشرائع عادة، إن لم يَقيض لها هذا الطراز من المفسرين والرواد والمطبقين العظام.

وهكذا وضعت في الشريعة مبادئ وأصول تجعل الشريعة السماوية شريعة إنسانية في كل تطبيقاتها، من ذلك قاعدة" الضرورات تبيح المحظورات" فمن الحق أن الله تعالى قال: " و ن لَّمْ ُكمْ بِما أَنْزَلَ الله ُيحْ فَأُولَئِك هم الفا سِقُون ﴾، ولكن الله وضع للحدود استثناء؛ إذ قال: " فمنِ اضْطُرَّ غَيْر باغٍ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم ﴾.

وهكذا لم يطبق عمر حد السرقة في عام المجاعة، وقضى بالعفو عمن سرق وهو جائع؛ لكي يأكل مع أن حدود الله صريحة واضحة، والآية تقضي بقطع يد السارق، غير أنه بالفهم المتكامل للإسلام وللأعماق البعيدة في النصوص التي يعتبر بعضها مقيدا ومفسرا للبعض، وبسعة الأفق والجسارة وبالفهم الدقيق لإنسانية الروح الإسلامية، جعل الاضطرار من غير بغي ولا عدوان، غير موجب للإثم، بل يستحق المغفرة والرحمة، وهو من أجل ذلك اعتبر الآثم من قهر

غيره على ارتكاب المعصية أو اقتراف الجريمة. فقد سـرق

غلمان ناقة لرجل غريب، وأوشك ولي أمرهم أن يأمر بقطع أيديهم، ولكن عمر رفض وقال لأولياء أمورهم "أما والله لولا أني أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى أن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه، حل له، لقطعت أيديهم، ثم أمر من يستعملونهم ويجيعونهم أن يدفعوا ثمن الناقة المسروقة، لأنهم هم الذين اضطروا الغلمان للسرقة".

ولقد جيء لعمر بامرأة جهدها العطش، فمرت على راع فأبى أن يسقيها إلا إن مكنته من نفسها، ففعلت، فأشار علي بإخلاء سبيلها، فلعلها مضطرة قد قهرت على هذا الإثم!

وثبت أنها مضطرة، فأخلى عمر سبيلها ولم ترجم، بل عوقب المعتدى عليها، الذي قهرها وخلق لها حالة الاضطرار وجعلها بين أن تموت عطشًا أو تمكن له من نفسها، وبهذه المواقف الإنسانية المتبصرة بالدوافع والعلل والغايات، أصبح الفكر الإسلامي بحق، فكرا إنسانيا قادرا على تغيير فساد الأنظمة مشحونًا بالثورية والقدرة على التجديد والتغيير.

الأرض ... ولمن؟

كان لتوزيع الغنائم في عهد الرسول ❐ قاعدة فصلتها الآية القرآنية: " واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل"، وعلى هذا سار أبو بكر الصديق.

كان خمس ما يغنمه المسلمون يعطى الله والرسول وللفئات التي ذكرت في الآية، أي أن هذا الخمس كان يوجه للإنفاق على مصالح الأمة (الله والرسول) ولسد حاجات المحتاجين.

أما أربعة أخماس الغنائم، فللمحاربين توزع عليهم عقب كل غزوة، حتى إذا اتسعت الفتوح الإسلامية في عهد عمر استولى المسلمون على أرض العراق والشام ومصر، وهي كلها أرض زراعية خصبة، وفيها رجال يفلحونها لحسابهم أو لحساب السادة ملاك الأرض، وزراعها يعملون بالأرض عبيدا لها.

وواجه عمر موقفاً صعبا بعد أن فتح الله على المسلمين هذه الأرض، ماذا يصنع بها؟ أيجري فيها حكم الغنائم،

فيوجه خمسا لصالح الأمة أي لبيت المـال للإنفـاق العـام

ويوزع الباقي على الغزاة، فيخلق طبقة جديدة من ملاك الأرض الكبار تخلف الطبقة التي انهارت من أهل البلاد الأصليين، ويحدث في الإسلام حدثًا يتعارض مع روح الإسلام، ليجعل منهم أصحاب قطائع، وكبار مستغلون؟

بدأ الخلاف بعد فتح العراق وشاور عمر أصحابه، وقدكان هذا هو شأنه دائما أن يشاور ويناظر حتى تنكشف الغمة ويهتدي الجميع إلى الرأي الصواب، ويعصم الإسلام من أن يخرق فيه أحد خرقًا.

وكان من رأي عمر أن يوجه الأرض جميعا للمنفعة العامة، وأن تكون الأرض لمن يفلحها على أن يؤدي منها ضرائب للدولة توجه للإصلاح ولتأمين الدولة وثغورها والارتفاع بمستوى المعيشة، ورأى عدد من الصحابة على رأسهم علي بن أبي طالب. رأي عمر.. ورأى آخرون وعلى رأسهم عبد الرحمن بن عوف أن هذه الأرض غنائم، ويجب أن يتبع في تقسيمها ما يتبع في تقسيم الغنائم؛ أي أن يعطوا أربعة أخماسهم، وأغلظوا على عمر واتهموه بالظلم، وساءت أخلاقهم في هذا الأمر.

ولكن عمر خطب في الجند بعدما اشتد الخلاف بين الصحابة.. "قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم، وإني أعوذ بالله أن أركب ظلما – فو الله لو كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق – لئن كنت ظلمتهم شيًئا هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت، ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى، وقد غنمنا الله أرضهم وأموالهم وعلوجهم، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله، وأخرجت الخمس فوجهته على وجه، وقد رأيت أن أحبس الأرض بعلوجها، وأضع فيه الخراج وفي الرقاب الجزية يؤدونها فتكون فيًئا للمسلمين، أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لابد لها من أن تشحن بالجيوش، ولابد لها من رجال يلزمونها، وإجراء العطاء عليهم فمن أين يعطي هؤلاء إذا قسمت الأرض.

فقال الناس جميعا: "نعم ما قلت وما رأيت. إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقون به أهل الكفر.. (وهكذا قرر عمر إبقاء الأرض لمن يفلحها وفرض عليهم الضرائب (الخراج والجزية) آلت كلها

لمصالح الدولة، وقد بلغت جباية الكوفة وحدها مائة ألف ألف درهم وجهها عمر وجه جباية المدن الأخرى للنفع العام.

وهكذا وضع عمر نوعا جديدا من الملكية في ذلك العصر، حماية لحقوق الأمة كلها وتحقيقًا لمصالح الجميع، لا لفئة على حساب فئة أو لطبقة على حساب طبقة.

***

المساواة أمام القضاء

من الإنصاف عندما نريد تقدير شيء أن ندري الظروف المحيطة به، فكثير من الأفكار التي تبدو لنا مألوفة في أيامنا هذه كانت على عهدها متقدمة وثورية أيضا، وكانت صدمة لبعض الناس في زمانها، من ذلك المساواة أمام القضاء، إن أبناء هذا الزمان يرونها أمرا من أمور البداهة، ولكن الذين عاشوا في مصر قبل إلغاء الامتيازات الأجنبية يذكرون أية مرارة كان يعانيها المواطن في وطنه، وهو يرى الأجانب يتمتعون بامتيازات أمام القضاء لم تكن للمصريين، وكان هذا الأمر عاما في كل البلاد التي كانت في يوم من الأيام تابعة للخلافة العثمانية وجزءا من إمبراطورية آل عثمان.

ولقد كان من أهم أهداف الثورة الفرنسية: المساواة.. وبصفة خاصة المساواة أمام القضاء، فقد كان للأمراء ورجال الحاشية وكبار الملاك امتيازات خاصة، ولكن الإسلام كان قد تخلص من هذا كله منذ زمن بعيد، وقد فتح المسلمون بلادا كثيرة، وكان من الطبيعي أن يشعروا بالامتياز على أبناء البلاد المفتوحة الذين حررهم الإسلام،

ولكن ولاة أمورهم كانوا يردونهم إلى تعاليم الـدين بحسم، ويكلفونهم في سبيل تحقيق المساواة مشقة هائلة، من ذلك مـا كان يفعله عمر بن الخطاب، فقد ولى عمرو بن العاص حكم مصر بعد الفتح، وتجادل ابن عمرو وابن أحد أبناء الفقـراء المصريين، فاعتدى ابن الأمير علـى ابـن الفقيـر، وشـكا المعتدى عليه إلى عمر بن الخطاب فأرسل يقرع عمرو بـن العاص "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهـاتهم أحـرارا؟" وأمر فاقتص ابن الفقير من ابن الأمير، عمرو بن العاص.

كان عمر بن الخطاب شديدا حقا في إقرار هذه المساواة، لكيلا يشعر أحد الذين دخلوا الإسلام حديثًا بأنه أقل درجـة، ولكيلا يشعر أحد السابقين أو القرشيين بـأن السـبق إلـى الإسلام أو الانتماء إلى قريش يمنحه امتيازا ما، فتنهار قاعدة العدالة التي هي أحد أركان النظام الذي أنشأه الإسلام، ولقـد كان ببعض الصحابة هذا الحرص نفسه، وكـانوا يشـعرون بحرج كبير من كل ما قد يثير شبهة التفرقة أو يمس قاعـدة المساواة.

وقد احتكم يهودي وعلي بن أبي طالب إلـى عمـر بـن الخطاب وهو أمير المؤمنين، فقال عمر لعلي: "قـم يـا أبـا الحسن وأجلس أمام خصمك، ساو خصمك يا أبا الحسن".

فقام علي فجلس أمام خصمه مساويا له، وقد غشيت وجه علي كرم الله وجهه كآبة، فلما انتهى النزاع وقضـى عمـر وانصرف اليهودي قال عمر لعلي متلطفًا: "أكرهت يا علـي أن تجلس أمام خصمك"؟

ولكن علي بن أبي طالب أجاب: "كلا ولكني كرهت أنـك لم تسو بيننا حين قلت لي يا أبا الحسن" (وأبو الحسن هو كنية علي والنداء بالكنية تعظيم عند العرب) – بهذه الروح – عند الحاكم والمحكوم – أكد الفكر الإسلامي الحر، قاعدة المساواة أمام القضاء: أن الناس سواء في الحقوق والواجبات، لتكون هذه المبادئ من بعد هدف الثورات الكبرى في التـاريخ الإنساني.

***

أول صراع

كانت يقظة الخليفة عمر بن الخطاب، وشدته في الحـق، وصرامته في تطبيق مبادئ الإسلام، كانت هذه كلها ضمانات للاستقرار، ولحماية هيبة المبادئ الجديدة بكـل مـا تحملـه للناس من مساواة في فرص العمل ومجالات الإنتـاج ومـن عدالة في التوزيع، وبكل ما تحققه من حرية للإنسـان فـي مواجهة الحياة والسلطان والمصير.

وكان عمر بن الخطاب حاسما مع الذين يـوليهم أمـور الناس، وكان يعرف عن بعضهم ضعفًا للغنى، فـاهتم بقمـع تطلعاتهم إلى الثراء ليظل للإسلام نقاؤه، وليكون الولاة بحق هم المثل الأعلى في الطهر والعفة والاستقامة، أمام جمـاهير

الأمة. وكان مع عمر بن الخطاب عدد من المسـلمين الأوائـل

الذين يحتفظون في أعماقهم بكـل ثوريـة الـدين الجديـد، ويحرصون في سيرتهم على أن يكونوا بحق هداية للناس. كانوا يشعرون بمسئولية جماعية عن إقرار العدل، وعـن توفير السعادة لكل فرد، وكانوا يشعرون أن النصح واجـب

شرعي يجب أن يؤدوه للخليفة، ولكل من ولي أمرا، وكـانوا يعتبرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكليفاً عينيـا، فكل منهم ملتزم به، وأن نشر المعرفة وتفقيه الناس في أمور الدنيا والدين فريضة على الذين يعلمون منهم، وكانوا يـرون السكوت على الظلم مشاركة فيه!.. ومن خلال هـذه القيـادة الجماعية الرشيدة استطاع أبو بكر وعمر بن الخطـاب مـن بعده أن يسوسا الدولة الفتية، وأن يجعلاها مصـدر إشـعاع حضاري، فبدلاً من علاقات الإنتاج القائمة على الاسـتغلال والقهر، سادت علاقات جديدة تكفل العدالة والحرية، ونشـأ مجتمع جديد تغيرت فيه أشكال العلاقات ومضامينها، وانبثقت فيهم قيم روحية وفكرية جديدة.

وهكذا ازدهرت الحياة، وشاع الأمـن، ومـارس النـاس الحرية، وصلحت ظواهر الأمة وبواطنها، مـنح الإحسـاس بالمسئولية كل مسلم من السابقين قدرة على العمل الـدائب، فتفجرت الطاقات تعمل وتضيف إلى الحياة غنى، وعمـرت الثقة بالمستقبل قلوب الناس، وأضـاء العـدل فـي الجنبـات، وفجر عزمات الرجال، على أن المتطلعين إلى الثـراء لـم يهدءوا، فما كاد عمر بن الخطاب يغتال، حتـى وقفـوا دون

انتخاب أي واحد من الذين يمكن أن يسيروا في أمور المال سيرة عمر، وانفجرت من الأعماق أحلام الغنى تقود خطوات الرجال..!

كانت هذه الفئة المتطلعة إلى الثراء قد ضاقت بسياسة عمر التي فرضت عليهم سلوكاً ورعا متعففاً، وكان أفراد هذه الفئة يطمعون في حياة ألين، وما كانوا قد اغتفروا لعمر ابن الخطاب أنه حرمهم من أرض البلاد المفتوحة، فقد تطلعوا إلى امتلاك القطائع بدلاً من ملاكها القدامى، فرفض عمر وأيده علي، وكان علي شديدا هو الآخر في نزعات زهده، حريصا على أن تظل الأمور كما كانت منذ عهد النبي ❐: أن يعيش ولي الأمر كما يعيش أفقر رجل في الأمة، ولهذا قاوم المتطلعون إلى الثراء انتخاب علي، وانتخبوا (عثمان بن عفان) لينشأ أول صراع فكري وطبقي في الإسلام).

***

المال ... مال الناس

"إلا إن قريشا يريدون أن يتخذوا مـال الله معونـة دون عباده"، كما قال عمر، ذلك أن كبار قريش إذ ذاك تتطلع إلى الغنـى الواسع ولين العيش في البلاد المفتوحة! هذا هـو مـا اكتشفه عمر بن الخطاب، وقاومه طوال حياته، واستعان في ذلك بعدد من كبار الصحابة من أهل الزهد والورع والجهاد والتقوى، وعلى رأسهم علي بن أبي طالب. غير أن عثمـان بن عفان خالف سلفيه وأبا بكر، فسمح لعدد من قـريش أن يسيحوا في البلاد المفتوحة، وعين بعضهم ولاة على تلك البلاد، وترك لهم أمر الخراج ولم يسألهم فيه، ولم يحاسـبهم على مظاهر الثراء كما كان يفعل سلفاه العظيمان، بـل إنــه أقطع لهم القطائع وسمح لهم ببناء القصور واتخـاذ مظـاهر الترف!

وهكذا نشأت طبقة جديدة، امتلكت الثروات، وكانت بحكم سبق بعض أفرادها إلى الإسلام، قادرة على أن تؤوّل القرآن والأحاديث!

ورأت من حقها أن تتمتع بالطيبات من الرزق، وزعمت أن الأموال العامة حق لها!

وهكذا أحلت لنفسها ما حرمه عليها النبي وأبو بكر وعمر من قبل.

وكأن الإسلام بكل ثورة التحرر الكبرى التي جاء بها، قد انتهى إلى ثروات في أيدي بعض المسلمين الأوائل!!

وهكذا تحول المجاهدون الأوائل إلى "أرستقراطية" مترفة غالت في استغلال المال العام والاستمتاع بالطيبات من الرزق، وفي تخير نصوص وتأويلها لمصالحها الخاصة! ولكن بعض كبار الصحابة الذين تعمر قلوبهم مبادئ الإسلام بكل ثوريتها ونضارتها، وقفوا أمام هذا الاتجاه.

وانتفضت الطبقات المكلومة التي جاء الإسلام لتحريرها، تحتج على تحريف الإسلام، وتطالب بالعودة إلى طهره، ونقائه، وسنة النبي، وتقاليد العدالة في الإسلام.

ووقف أبو ذر ليغير المنكر الذي يراه، وقف يدين ما يراه تخريبا في أصول الإسلام، وخرقاً في دعامات الأمة الجديدة التي قامت على احترام الحق واحترام العمل وتحقيق العدالة والمساواة.

وأخذ الصحابي الجليل، أبو ذر الغفاري يذرع البلاد شعلة ثورية، فواجه معاوية والي الشام بعد أن بنى قصرا فاخرا بأسوار شاهقة وحدائق مترامية: "يا معاوية: إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهو الإسراف".

وظل أبو ذر ينتقل من بلد إلى بلد يواجه الذين تأولوا الآيات والأحاديث، ليخلعوا على سلوكهم الشرعية! وكان يردد ما سمعه من النبي من أحاديث وما يحفظه من القرآن، ليدين هذا التحول الذي صدع المجتمع وأوشك أن يهدر العدل فيه، كان يذكر الناس بالآية التي جاء فيها، “ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾.

وزعمت الطبقة الجديدة أن المال مال الله؛ وإذ كانوا هم عباد الله فالمال مالهم!

فواجههم "أبو ذر" بأن المال مال المسلمين، وليس لمسلم أن يختزن منه شيئًا، بل الشرع أن ينفق المال لصالح

المسلمين، وظل أبو ذر يجاهد برأيه حتى تصايح المسـلمون

في وجه الولاة الظالمين: "إن المال مالنا ومن حال بيننا وبينه حاكمناه إلى الله بأسيافنا".

وهكذا دفعت الطبقة الجديدة بالصراع الطبقي إلى أوج حدته، حتى تحول إلى صراع مسلح تخوضه الطبقة المظلومة، ويقوده المسلمون الزاهدون المتقون، صراع يضطهد فيه رجال الفكر، ويسقط خلاله شهداء عظام.

***

للسابقين فضل

انطلق الفكر الإسلامي منذ كان يبحث وراء علل الأحكام، متجاوزا ظواهر النصوص التي تتضمن قواعد التشريع.

ومن التفهم العميق لعلل الأحكام استطاع الفكر الإسلامي أن يستنبط قواعد جديدة، وأتاح لنفسه أن يتجدد على الدوام بقدر ما تتجدد الحياة، ذلك أن المنطق العربي الإسلام اهتدى من أول الأمر إلى أن لكل حكم علة، وأن العلة تدور مع المعلول وجودا وعدما، فالحكم قائم ما وجدت علته، فإن لم تتوافر العلة فعلى ولي الأمر أن يستحدث قواعد مناسبة!

وهذا النظر منح قواعد الشريعة غنى وخصوبة وقدرة على التجدد، ولعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو ثاني الخلفاء الراشدين، كان أول المجددين الذين منحتهم صحبتهم لرسول الله قدرة خاصة على تفهم روح الإسلام، فاستوعب نصائح الرسول وحرصه على أن يتأمل الإنسان ويجتهد رأيه، ولا يقف عند ظاهر النص، بل يحول النص إلى منبع متفجر بالشعاع والهداية.

وعمر بن الخطاب هو إمام المجتهدين وقائد أهل الـرأي بين الخلفاء الراشدين، ولكنه ما كان يستأثر برأيه، بل كـان يسأل الصحابة كلما واجهوهم الزمان بجديد، ويعتد بـآرائهم، ولا يتحرج وهو أمير المؤمنين أن يعلن على الملأ أنه يقـدم رأى علي بن أبي طالب على رأيه فيقول: "علـي أقضـانا"، مقدرا لعلي وللصحابة أجمعين عمق صلتهم بنبـع الشـريعة كلها محمد رسول الله .

وهذه الجسارة في فكر عمر هـي التـي أغنـت الفكـر الإسلامي في عصر مبكر، وفتحت له الطريق إلى الانطلاق.

ولعمر بن الخطاب مواقف عديدة رائدة، منها ما يتصـل بأحوال الناس الخاصة والشخصية ومنها ما يتعلق بمال الأمة

جميعا. من ذلك أنه حاول أن يقنع أبا بكر بأن يميز أهل السـابقة

في الإسلام بحظ أكبر من العطاء، ولكن أبا بكر كان يرفض دائما مؤكدا أن السبق للإسلام فضل ثوابـه علـى الله، أمـا العطاء فهو معاش يجب أن يتساوى فيه الجميع.

حتى إذا ولى عمر أمر المسلمين وجد أن العلة من مساواة السابقين واللاحقين قد انتفت، فالـدين يثبـت فـي القلـوب

ولا خوف من أن يتزعزع إيمان البعض إذا انـتقص منـه العطاء، ووجد أن ظروف الدولة الجديدة تحتم تقديرا خاصا للذين بذلوا وجاهدوا وكانوا روادا بحق في ظـروف حالكـة وصعبة، ولهذا فما أن جاءت الفتوح الجديـدة، وانتصـرت جيوش المسلمين على القياصرة والأباطرة والملـوك الـذين يستغلون رعاياهم من أطراف الجزيرة، ما إن غُلبت الـروم في أقصى الأرض، وغُلبت الفرس، وامتلأت خـزائن بيـت المال، حتى أنشأ عمر ديوان الجيش، ورتـب الرتـب فـي الجيش، وجعل عطاء كل مجاهد على قدر منزلته من الجهاد، وعلى قدر ما قدم للدولة الجديدة قائلاً:

"لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه".

لم تكن هذه طبقية أو امتيازا، بل كانت مساواة من نـوع جسور، فقيمة العمل هي التي تحدد قيمة الإنسان.!

عن العمال والفلاحين

لأن الزكاة ركن من أركان الإسلام، ولأن الإسلام يؤكد للناس أنهم سواء أمام الله في الحقوق والواجبات، وأنه لا فضل لعربي فاتح على أعجمي – من البلاد المفتوحة – إلا بالتقوى، ولأن الإسلام يجعل العمل هو القيمة الحقيقية، دخل عبيد الأرض أفواجا في الإسلام.

وما كان الفلاحون في العراق والشام ومصر وفارس قبل الفتح الإسلامي إلا عبيدا للأرض، فاعتنقوا الإسلام لأنه عانق أحلامهم في الخلاص وفي حياة أفضل.

وبدأ الإسلام ينظم هذا المجتمع الجديد ويعيد تشكيل العلاقات الاجتماعية فيه، بدأ أول الأمر يغير من علاقات القوى المنتجة فيما بينها، ويغير من علاقات هذه القوة بأدوات الإنتاج.

كانت الحرف والزراعة هي أساس الثروات في تلك البلاد ذات الحضارات، التي يقوم نظام الإنتاج فيها على استغلال الملاك للقوى العاملة.

وفرض الإسلام مبادئ الثورة التي جاءت تغير شكل المجتمع على العلاقات في تلك البلاد، فالعمل هو القيمة، والقيمة هي العمل، في تلك الأيام كان العامل يسخّر لحساب غيره، سواء أكان حرفيًا أم عاملاً في المشروعات المختلفة من شق طرق أو ترع أو إقامة جسور أو تشييد مبان أو نحو ذلك، في كل مجال يسخر العمال.

فوضع الإسلام قواعد جديدة للتعامل: أنه لا عمل بلا أجر وأن الأجر يجب أن يقدر على أساس ما يحققه العمل من منفعة وما يبذله العامل من جهد.

والأجر الشرعي للعمل هو ما يقدر على هذا الأساس، فإذا انتقصه أحد أو جحده ارتكب إثما، ذلك أن الله شرع الجزاء على قدر العمل، فالناس يُجزون بما يعملون، هذا هو دستور حساب الله في الآخرة، وفي الدنيا.

وهكذا أكد الإسلام لأول مرة في تاريخ علاقات الإنتاج حق العامل في ثمرات عمله ولعن الاستغلال.

وأكد الإسلام موقفه من الاستغلال ومن رعاية حق العامل، ومن توفير العدالة الاجتماعية بتلك النظرية التي جاء بها عن "الفضل".

فالإسلام من خلال الأحاديث النبوية يشرع أنه لا حق لإنسان في أن يحتفظ بما لا حاجة إليه، لا يحق للإنسان أن يكون عنده فضل من ملبس أو فضل من طعام أو مال أو أي متاع لا حاجة له به، وفي الأمة من يحتاج إلى هذه الأشياء الزائدة، فما زاد عن حاجتك هو حق لسواك.

بهذا الموقف من العمل، ومن الاستغلال، ومن العدالة الاجتماعية، غزا الإسلام البلاد المفتوحة ففزع إليه العمال والحرفيون، والفلاحون.

ذلك أن الإسلام قد شرع لعلاقة الإنسان بالأرض: أن من أحيا أرضا ميتة فهي له.

أن الأرض لمن يفلحها.

للزارع ثمرات عمله.

فالأرض ملك الأمة، ومن يعمل فيها أمين عليها.

وهو وحده – هذا العامل فيها – صاحب الحق في الاستمتاع بحصاد عمله، وعليه أن يؤدي للأمة – وهو جزء منها – ضريبة ينفق مجموعها على المنفعة العامة.

وهكذا تحققت العدالة والرفاهية لأبناء الأمة، ونشأت حضارة.

وهكذا غير الإسلام كل العلاقات بين قوى الإنتاج وأدوات ووسائل الإنتاج، فتغير وجه المجتمع.

وعلى هذا المجتمع الجديد رفرفت قيم جديدة وفضائل جديدة.

***

عود على بدء

تربصت الطبقة الجديدة بعلي بن أبي طالب.

ذلك أنهم خافوه على ما كسبوه، فقد كانوا يريدون أن يحولوا الإسلام إلى نصوص تدعم ما يحصلون عليه من امتيازات، وكانت المدينة بعد مقتل عثمان تزخر بأمواج من الثائرين من أهل التقوى، ومن فقراء العرب ممن حمل لهم الإسلام كل الأمل في الخلاص، يقودهم بعض الورعين الذين ضاقوا بسياسة حكامهم في أمور المال.

وطالبت الطبقة الجديدة عليا أن يتخلص من هؤلاء المحرضين والثائرين لمقتل عثمان بن عفان فقال: "كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ ها هم خلالكم يسومونكم ما شاءوا فهلا ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون؟".

كان اضطراب الأمر، هو الحصاد الوحيد لسياسة تجميع الثروات التي سار عليها بعض الولاة أيام خلافة عثمان.

كان بعض أفراد الطبقة الجديدة يرصع داره بالعقيق، وبين أفراد الأمة من ينهكهم الفقر والمرض، وكان هذا كله غريبا على الإسلام.

ومن أجل ذلك وجد علي بن أبي طالب، أن مسئوليته هي القضاء على أسباب الثورة، والعودة بالحياة إلى نقائها في عهد الرسول ثم في عهد أبي بكر وعمر.

وبدأ علي فحاسب الولاة الذين أثروا، وصادر أموالهم وأعادها إلى بيت المال، ووجه بعض هذه الأموال للإنفاق على المنافع العامة، ووزع الكثير على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل.

وولى عمالاً آخرين، وشرع نظاما لمراقبتهم ومحاسبتهم، وما كان أسرع ما ينزل بالواحد منهم عقابه إذا أخطأ.

وعلى عكس ما كان يصنع عثمان من حسن الظن ببعض أصحابه وأهله، كان علي بن أبي طالب أكثر تحرزا مع أهله وأصحابه، وقد أرسل إلى أحد عماله: "إن صلاح أبيك غرني فيك، بلغني أنك تدع عملك كثيرا وتخرج لاهيا متنزها متصيدا، وأنك قد بسطت يدك في مال الله لمن أتاك من أعراب قومك كأنه تراث عن أبيك وأمك، وأن اللعب واللهو لا يرضاهما الله، وخيانة المسلمين وتضييع أموالهم مما يسخط ربك، ومن كان كذلك فليس بأهل لأن يسد به الثغر،

ويجيء به الفيء، ويؤتمن على مال المسلمين، وأقبل حين يصل كتابي هذا إليك".

فلما أقبل إليه وحقق معه، تبين علي بن أبي طالب أن على هذا العامل ثلاثين ألفًا، فسجنه فيها حتى ردها.

ثم إن عليا بن أبي طالب، في حرصه على أن يصفي الطبقة الجديدة التي اهتمت بتكديس الأموال، ولكي يقضي على التطلعات الشائعة، عاد إلى سياسة أبي بكر وعمر في ألا يولي كبار الصحابة إمارة البلاد؛ كيلا تفتنهم الدنيا كما فتنت غيرهم، وقد ألح عليه الزبير وطلحة أن يوليهما على البصرة والكوفة، ولكنه رفض؛ كيلا يغريهما المال وتفتنهما أبهة الإمارة، وهكذا سار مع كبار الصحابة جميعا.

وقد تجشم علي كثيرا من العناء والمشقة، لكي يثبت هذه السياسة، وواجه سخط الطامعين وحقد المتطلعين.

***

أسلوب الحكم

عزل علي بن أبي طالب الولاة الذين استباحوا أموال الأمة.

ورد الإمام كل القطائع التي وزعها عثمان على الأقارب

والأتباع. وامتحن الإمام في سبيل ذلك ببلاء كثير، وبغضب

المقربين منه، وإيذاء ذوي القربى.

وقد بدأ عهده بأن ولَّى رجالاً يعرف فيهم تقوى الله والتحرج من الإثم.

وأعلن أنه سيحصى عليهم أموالهم يوم يوليهم، ثم يحصيها عليهم بعد ذلك، فمن وجد عنده زيادة صادر الزيادة، وعاقب الوالي الذي أباح لنفسه الإثراء على حساب المسلمين أو التمتع بما ليس له، أو ذلك الذي يسلك مسيرة السفهاء حتى لو أنفق من حر ماله، لأن ملكية المال كما كان يفهمها الإمام مشروطة بتحقيق المنفعة العامة، فالمالك وكيل في ماله عن الأمة، له أن يعيش منه وأن يتمتع في اعتدال، أما ما فاض عن حاجته مما يكنز، فليس من حقه، والذين يكنزون الذهب

والفضة وفي الأمة محتاجون تتحول كنوزهم إلى مكاو تكوى بها جباههم وجنوبهم، يوم القيامة، هكذا كان إيمان الإمام علي ، وهكذا رص على ألا يوجد في الأمة أغنياء واسعوا الثراء يكنزون ما لا حاجة لهم به، وفي الأمة فقراء في حاجة إلى الطعام والكساء والمأوى.

إن العمل هو الذي يحدد مكان الإنسان وقيمته، فما بال رجال يعملون ولا ينعمون كما ينبغي بثمرات عملهم وآخرون مدللون يكنزون ما فوق حاجتهم؟

قرر أن يتخلص من هذه الآفة، فوجد أن الذي خلق هذه الآفة في الأمة، هو حب استغلال القرابة أو الصلة بولي الأمر، والحرص على الاستفادة من السبق إلى الإسلام!

وفي هذا الصدد كانت قد نشأت مدرسة بأسرها من الفقه والتأويل، تتأول الآيات والأحاديث لمصلحة الطبقة الجديدة التي شاءت أن تصوغ الدولة في نسق ملكي، لا بد أن تتسق هي معه!

وكان من أفراد هذه الطبقة رجال مشهود لهم بالفضل والسبق والعلم، وكان هذا يحرج الإمام عليا بن أبي طالب!

ولكن الإمام بجسارة ثورية، ودفاعا عن مبادئ الإسـلام، ولكيلا يكون لأحد سبيل على الإسلام بتأويلات غريبة عـن روح الإسلام، واجه الموقف بلا تردد فأنزل عقابه بلا هوادة بمن تأول ليحصل على ما ليس له!

وكانت الواقعة مع ابن عباس، وهـو ابـن عـم الإمـام وصفيه، وهو أحد أئمة التفسير وأحد كبار الفقهاء الذين يلجأ إليهم الناس في أمور دينهم.

ولاه الإمام أميرا على البصرة، فأصاب من المال ما رآه الإمام متجاوزا فيه حقه، فأرسل يسأله.

وغضب ابن عباس وحمل المال الذي أخذه وعـاد إلـى مكة، فاشترى الدور والجواري، وأرسل إلى علي يقول:"أمـا بعد، فقد بلغني كتابك الذي تنكر فيه علي إصابة المال الـذي أصبت من مال البصرة، ولعمري إن حقي في بيـت المـال لأعظم مما أخذت منه، والسلام".

ورد عليه الإمام:

"أما بعد، فإن من أعجب العجب تزيين نفسك لك أن لكـل في بيت مال المسلمين أكثر مما لرجل من المسلمين، عمرك الله، إنك لأنت البعيد البـعيد إذن، وقد بلغني أنك اتخذت مكة

وطنًا وصيرتها عطنًا واشتريت مولدات المدينة والطائف تتخيرهن على عينيك وتعطي فيهن مال غيرك، والله ما أحب أن يكون ذلك الذي أخذت من أموالهم لي حلال أدعه ميراثًا، فكيف لا أتعجب اغتباطك بأكله حراما. مكانك قد بلغت المدى؛ حيث ينادي المغتر بالحسرة، ويتمنى المفرط التوبة، والظالم الرجعة ولات حين مناص".

وأعلن الإمام أن كل من يمتلكه ابن عباس أو غيره ممن تولوا المسلمين لا يحل له منه إلا ما كان يملكه قبل أن يولي الأمر، وأما ما زاد على ذلك فحق للمسلمين.

كما أن من حق المسلمين ألا يولي عليهم إلا الأصلح أخذًا بسنة الرسول من أنه من ولى من أمر المسلمين شيئًا، فولى غيره لقرباه أو مودة، وهو يعلم أن هناك من هو أصلح منه فقد أثم.

وهذا هو أسلوب الحكم الثوري في الإسلام.

***

الدم والحق في الإسلام

ما من كلمة لها رنين خارق في أعماق النفس مثل كلمـة "الجهاد"، ذلك إنها تثير كثيرا من الذكريات الباهرة، والشجن، وكثيرا من الأحلام، وهي بعد تذكي في الأعماق ذلك الأمـل العذب الموصل بحياة أفضل، وتشـيع فـي الجذَبـات ذلـك الإحساس بالقدرة والعزة والرضا وكل ما يصنع الكبرياء.

وهي في حاضرنا – كلمة "الجهاد" هذه – تنطلق بكل مـا تملكه الكلمة المضيئة من طاقة وإشعاع لتلقي على الحياة من حولنا نورا يبين لنا ما نحن فيه وما كنا عليه، وما يجـب أن نصير إليه.

ونحن إذ نقف في أرض الحاضر بنظرات يغشاها الـدمع من الأسى على روعة الأيام الجميلة الماضية، لا نـرى أن نفقد القدرة على أن تظل أبصارنا مشدودة إلى المستقبل.

إننا نتأمل الماضي لنعتبر، ولنستلهم من الطاقة مـا يعيـد إلينا الثقة بالنفس، وما يعمرها بالقدرة على أن تصـوغ فـي الأيام القادمة وجه الحياة على نحو أنضر وأجمل.

ونحن نعرف أن السلف العظيم قد صنع كل ما هو مجيد ورائع ومضيء في حياة الإنسانية، على خلال إيمانه بالجهاد.

في وقت ما كان الجهاد جزءا لا يتجزأ من الإيمان بالعقيدة، وكان الرجال العظام الأوائل ينطلقون تحت ظلال السيوف، وقد أدركوا أن حياة الهوان باطل، وأن الموت دفاعا عن القيم التي يؤمنون بها خير من حياة يهدر فيها كل ما هو غال وعزيز عليهم، انطلقوا يطلبون الموت لكي توهب لهم الحياة، وهكذا فاضت أشعة الحضارة من بريق السيوف العربية لتغطش الإنسانية ليلها وتخرج ضحاها!

هكذا انتصرت فئة قليلة في معركة بدر، وبدأ أول تحول حضاري، ونشأ إنسان جديد!

وبعد سنوات قليلة، انتصرت آلاف قليلة على مئات الألوف من الفرس والروم، وانتشلت تعاليم الدين الجديد – بكل قيمها في المساواة والخير والعدل والإخاء والحرية – ملايين المعذبين في الأرض من رعاية الإمبراطوريتين القائمتين آنذاك: الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية.

وبهذا الحرص على الموت بحثًا عن حياة أفضل أحرق طارق بن زياد سفينة وهو يعبر أوربا، ولم يعد أمام ممثلي القيم الجديدة إلا أن يموتوا دفاعا عما يؤمنون به، أو ينتصروا ويزحفوا بمشاعل التنوير إلى أرض الظلمات، وهكذا انتشرت التعاليم التي حملها الرجال الأوائل العظام، وأصبح بحر الظلمات بحيرة عربية يسطع عليها شعاع الفكر، وساد سلطان العقل الجديد!

ولا أحد اليوم يطالب ورثة أولئك الرجال الأوائل العظام بأن يصنعوا كما صنع السلف، لا أحد يطالبهم بأن يهبوا جميعا، لينشروا قيم الدين الذي يؤمنون به في وجه غاشية الظلم والفوضى والاستبداد في أكثر من مكان من أرض البشر، ولكنهم مطالبون بأن يردوا المعتدين، وهذا هو أقل القليل وإن كان ليبدو كالمستحيل.

لا أحد يطالب الأغنياء بأن يعيشوا كما عاش سلفهم، ولا أحد يطالب بعض أولياء الأمور في البلاد الإسلامية بأن يعيشوا كما عاش الرسول ❐ وأبو بكر وعمر وعلي وعمر بن عبد العزيز، ولكنهم مطالبون بأن يدركوا – فيما يأخذون وما يدعون من أمور - بأن كلهم راع ومسئول عن رعيته،

وأنهم مأخوذون بكل ظلم يقع، وبكل حاجة ترهق صاحبها، وأنهم المسئولون أول الأمر وآخر الأمر عن أنهم لم يحرضوا الناس على القتال – كما ينبغي – والعدو يحتل أرضهم، ولم يعدوا له ما يستطيعون ليرهبوا به عدو الله وعدوهم!

ولعلهم قرءوا الحديث الشريف "لغدوة في سبيل الله، أو روحة خير من الدنيا وما فيها".

والذين يؤمنون بالدين وينادون بالعودة إلى مبادئه مطالبون بألا يأخذوا ببعض الكتاب، ويتركوا بعضه، إنهم لمطالبون بأن يدركوا أن الجهاد هو الذي حمى هذا الدين، ولقد كان المسلمون الأوائل يوم بدر يدعون الله من وراء الرسول أن ينصرهم؛ لأنهم كانوا يعلمون أنهم إن هزموا فلن يعبد الله بعدها أبدا، وكان الواحد منهم يؤمن بأنه من الخير له أن يموت في حربه مقبلاً غير مدبر، فتكتب له عند الله حياة خلود في جنات تجري من تحتها الأنهار وهذا أفضل من حياة يتحكم فيها الأعداء!

كان الجهاد عقيدة لا وسيلة لحماية العقيدة فحسب.

وسمح للمجاهد أثناء القتال بأن يتجاوز عن أداء بعض العبادات التي هي من أركان الدين، كالصيام والصلاة، فشرع تقصير الصلاة!

ولكن ما هو هذا الجهاد الذي يجب أن يؤديه كل قادر؟

أود أول الأمر أن أذكر أنني لا أريد أن أستثير عصبية دينية، فلتهدأ القلوب في الصدور!

وأنا لا أزعم أنني أحد الذين يحسنون استنباط الأحكام، فلست من رجال الدين الذين تعودوا هذه الأمور، ولكنني أشعر أنني منذ اخترت الكلمة أداة للتعبير، مسئول عن نشر الصفحات الرائعة عن المواقف والمبادئ العظيمة في تراثنا، لأن هذا هو بحق ما يشكل وجدان الإنسان، فمن اعتياد النظر في هذه المواقف الجليلة تعمر النفس بالثقة، وبالقدرة على أن تغير الواقع وتبنيه من جديد.

وأنا أعرف أنني سألقي عنتًا في هذا السبيل، ولكنني تعودت هذا منذ شرعت من نحو عشرين عاما أتأمل هذه المبادئ، والقيم التي ينبض بها تراثنا، وأحاول أن أعرضها على الناس عظة وعبرة وذكرى لمن تنفعه الذكرى، ولمن ألقى السمع وهو شهيد، ولمن يتدبر أو يخشى!

ولقد أذكر أنني عندما نشرت منذ نحو عشرين عاما مقالاً بعنوان: "محمد رسول الحرية" ثم نشرت كتابا في هذا الموضوع منذ عشر سنوات؛ اتهمت بأنني جعلت الرسول الكريم "ماركسيا"!!

ولكن فلنمر باللغو معرضين ولنعد إلى حديث الجهاد، فهو أولى!

الجهاد هو بذل كل ما عند الإنسان من جهد.

وقد أُمر المسلمون بأن يجاهدوا في سبيل الله جهادا، يجب

أن يبذل فيه الإنسان كل ما في طاقته.

وسبيل الله هو كل ما جاء به الدين من مبادئ وقيم.

وإذن فكل مسلم مطالب بأن يبذل كل ما في وسعه من جهد؛ دفاعا عن الحق والعدل والصدق والخير والإحسان، ولكل المبادئ والفضائل التي جاء بها الإسلام.

هذا هو الأصل وهو واجب كل مؤمن.

وأول الجهاد النفس لتهذيبها وتنمية ملكاتها المبدعة.

ولعل خير تدريب عليه هو فرض الصيام.

ولكن الجهاد اتخذ معنى اصطلاحيا فأصبح تعبيرا عن القتال.

والقتال واجب شرعي يتعين على كل مسلم أن يؤديه؛ دفاعا عن النفس والأرض والمال، عندما يقع على بلاده عدوان.

وبلاد المسلم ليست هي القطر الذي يعيش فيه، ولكنها الأرض التي ترتفع عليها راية الإسلام، ذلك أن المسلمين أمة واحدة، وطن المسلم إذن هي دار الإسلام، هي كل بلاد الأمة

الإسلامية. والمسلم بهذا لا يدافع عما للمسلمين فحسب، وإنما هو
بحكم الدين يدافع عن كل من يسكن أرض هذا الوطن الكبير، وإن لم يشترك معه في الدين.

الجهاد الواجب على المسلمين هو القتال ضد المعتدين دفاعا عن الوطن، وعن مصائر المواطنين مسلمين وغير مسلمين.

فرد□ العدوان واجب شرعي، وهو تحرك حي تمليه غريزة حب البقاء، وقد حضت عليه الديانات من قبل الإسلام، وفي هذا يقول السيد المسيح في مواجهة أعداء الحياة في عصره "جئت لألقي سيفا..".

والقتال الذي كتب على الناس وهو كره لهم هو القتال دفاعا عن الوطن، وعن العقيدة.

فلا بد إذن أن يقع عدوان ليصبح القتال فرضا على المسلمين، فإذا وقع العدوان فهو واجب محتوم يلزم أداؤه، ومن لم يؤده فهو آثم.

" وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ".

أما الذين لم يقاتلونا ولم يعتدوا علينا فلا جناح علينا أن نتخذهم أصدقاء وأن نحسن إليهم، وواجبنا أن نكون في معاملاتنا معهم من العادلين.

إنما الإثم حقًا هو أن نبحث عن الصداقة في صفوف الذين يساعدون المعتدين، الذين يخرجون فريقًا منا من ديارهم ويحتلون أرضنا.

" لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين

وأ ْرجوكمُ فی ِديا ِرُكمْ وظاَ اعلى ِإ ْخرا ِج تَولَّوْ
هروا ُكمْ أَن هْم

ون يتَوَلَّهُم هم الظَّلِ فَأُولَئِك و ﴿ هذا نص مـن القـرآن

الكريم.! وإذن فليتدبر الذين يطالبون الدول الإسلامية بالعودة إلــى مبادئ الإسلام، فليتدبروا وهم يقيمون علاقاتهم الدولية بالقوىالمختلفة، من هم الذين لم يقاتلونا في الدين، ولم يخرجونا من
ديارنا؟

ثم من هم الذين أخرجوا الفلسطينيين من ديارهم واعتدوا على سائر ديار الإسلام؟ ومن هم الذين ظاهروا وساعدوا في إخراج المسلمين وعلى العدوان؟ أما الذين ما زالوا يقيمـون علاقات مع من ظاهروا على إخراجنا وساعدوا وما زالـوا يساعدون العدوان علينا، أما الذين يقيمون علــى الـود مـع هؤلاء، فأولئك هم الظالمون!

هذا هو ما يقضي به الإسلام، وعلينـا أن ننـزل علـى أحكامه، إن كنا حقا مسلمين.!!

***

وأنا هنا لا أصدر فتوى، وإنما أقرأ من جديد بعض آيات الكتاب الكريم، وأحاول معك أيها القارئ أن نـتفهم جميعــا بعض المبادئ والقيم في الإسلام، وهي قيم ومبـادئ ربمـا

تأولها أو انحرف عنها بعض الذين في قلوبهم مرض، وربما لم يفطن إليها بعض الذين يسمعون القرآن وضجيج المصالح الفاسدة يصم منهم الآذان.. وأنت لا تسمع الصم الدعاء!

وربما كان قد مر بعض المسلمين الطيبين بهذه الآيات القرآنية ولم يفطنوا إليها، وربما كانت قد حجبت عنهم لأمر

ما!! وعلى أية حال، فنحن لن نتلقى تعاليم الإسلام من آلهة المصالح الأجنبية، فما بال بعض من رجالنا يتخذونهم أولياءمن دون المؤمنين؟ أيبتغون عندهم العزة؟! فإن العزة الله

جميعا!

القتال إذن فرض واجب عندما يقع عدوان، عندما يخرجنا العدو من ديارنا، وهو واجب ضد الذين أخرجونا من ديارنا، وضد الذين اعتدوا علينا وضد الذين يظاهرونهم ويساعدونهم على السواء.

وهو ليس واجبا على الذين أُخرجوا من ديارهم فحسب، ولا على الذين اعتدى عليهم وحدهم، وإنما هو واجب على كل مسلم وعلى كل مقيم في أرض إسلامية عندما يقع عدوان على أية بقعة من أرض المسلمين.

" وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ".

فهو إذن أمر من الله إلى كل المسلمين أن يقاتلوا المعتدين جميعا، ومن يخالف هذا الأمر آثم لأنه قد خالف أمر ربه.

إن كل قوى الظلام: العسكرية الإسرائيلية، والدوائر العدوانية في إسرائيل وأمريكا، وقوى الإمبريالية العالمية، كلها تقاتلنا كافة، فمن واجبنا أن نقاتلها كافة، من واجب كل مسلم أن يتحرك بكل ما يملك من جهد، ليضرب هذه القوى وليسترد الأرض العربية المحتلة، إنه لفرض على كل مسلم بحكم القرآن، ولن يعفيه من أداء هذا الواجب الشرعي، زعم بالحرص على مصلحة عارضة مهما يكن وزنها، لأن مصلحة الأمة الإسلامية كلها أولى بالرعاية، وكأن الله تعالى ينذر هؤلاء الذين يتعللون اليوم بحماية هذه المصالح، ليتخلفوا عن الجهاد حين أنزل الآية الكريمة: " قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ

إِلَيْكُم ه ر ولِ وجهٍ سِبِيلِهِ وحتَّى
اللهِ و ه فِي فترَ ب بِ تأِي

اللهُ بِأَ لاَ يهْدِي الْقوْم سِقِين ۞ .
وِهِ اْ فا والله

هذا هو رأي القرآن فيهم، فهل من مدكر، حكمة بالغة فما تغني النذر؟!

والجهاد بعد هذا ليس اندفاعا تلقائيا، ولكنه حركة مدروسة وضع لها الإسلام قواعد وشرائط.

وقد كتب القتال على المسلمين وهو كره لهم لرد المعتدين

وأعوانهم. والعدوان واقع الآن على فلسطين ومصر وسوريا

والأردن.

العدوان واقع عندما تحاول السلطة في بلد ما أن تقهر المسلمين بالتعذيب أو الظلم، لتفتنهم عن دينهم كما يحدث الآن في الفلبين!

وما شرع الجهاد لفرض العقيدة على الآخرين، فلا إكراه في الدين.

والفتوحات الإسلامية في العصور الزاهرة الماضية، كانت بهدف انتشال الإنسان من الظلمات والفوضى، وقد كانت لقاء مع الثورات الوطنية في تلك البلاد ضد الظلم والقهر والامتياز والتفرقة، ومن أجل ذلك أسرع سكان البلاد المفتوحة باعتناق الدين الجديد، وتعلموا اللغة العربية لا عن

كره وهم صاغرون، بل عن إرادة واعية انفجرت من أحلام الثائرين الذين طال انتظارهم وهم يكابدون ويناضلون!

ولأن الجهاد رد إنساني عادل على العدوان بكل أشكاله، فلا بد أن يخضع لنسق عقلي ولناموس تقويم الإنسان، وهو أحسن تقويم.

من أجل ذلك يجب أن يكون الجهاد حركة منسقة متكاملة، فهو يبدأ أولاً بالحشد المعنوي وهو التحريض: " **يا أيها** النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ".

والإعداد أو الحشد المعنوي لا يتأتى إلا بوجود عقيدة عند المجاهدين.

لماذا يخرج المجاهد إلى القتال؟ عن أي شيء يدافع؟

في سبيل أية قيمة يؤثر الحياة على الموت؟

وهذا كله دور الإعلام في عصرنا.

وقديما كان أفقه الناس بالدين، هم أصبر الناس على القتال، وهم الأئمة في الجهاد يعلمون الناس ويحشدونهم ويقودونهم في المعارك.

في العصر الإسلامي الأول كان النبي هو قائد جيش المسلمين، وكان يختار لقيادة جيوشه رجالاً من أفضل الصحابة وأكثرهم علما بالدين.

وعلى هذا سار الخلفاء الراشدون.

لم يعرف ذلك العصر الزاهر النابض بروعة البطولة ونبالة التضحيات فرقًا بين المجاهد والفقيه وعالم الدين، كان العلماء يحرضون على القتال، ويتقدمون الصفوف ويستشهدون دفاعا عما يؤمنون، ويضربون للناس الأمثال في البذل.

وكان كل من في القادرين على حمل السلاح يلتمس مكانا لنفسه بين المجاهدين، وكان الصبية الذين لم ترتفع بهم السن إلى مرحلة الشباب بعد، يبكون لأن الزمن لم يسعفهم لينالوا شرف الجهاد، وكانت النساء يخرجن إلى الجهاد، وعلى عهد الرسول ❐ خرج بعض نسائه إلى الحرب، وكن يسقين المقاتلين.

وفي غزوة اليرموك بقيادة خالد بن الوليد، حاول بعض الذين انضموا إلى جيشه أن يهربوا من مواجهة جيش الأعداء، وكان جيش الأعداء أضعاف جيش المسلمين،

فتصدت النساء للفارين، يضربن هامات الخيل بقضبان الحديد ويزرين بالرجال الفارين قائلات: "إلى أين يا ُفوار"؟.

وعاد الفرُار، لووا أعنة الخيل، واقتحموا في صدور الأعداء، الأبواق العزافة وصيحات النساء وقعقعة السيوف واضطرام العقيدة والحرص على الاستشهاد دفاعا عن الحياة، كل أولئك يبعث فيهم قوة خارقة، وهم يواجهون عدوا يملك من العدة والعديد وأنواع السلاح المتقدمة أضعاف ما يملكون، ولكنهم انتصروا وتوالت انتصاراتهم لتظل عبر التاريخ معجزات عسكرية خالدة، وشهيدا على ما تستطيع العقيدة أن تصنعه بالقلوب والسواعد والطاقات!

وإنه لأمر جدير بالتأمل أن ينتصر العرب في العصور الأولى على دول أعرق منهم حضارة وأكثر تقدما، ذلك أن العقيدة فجرت في العرب قوة خارقة، فلم يثاقلوا إلى الأرض، ولم يتعللوا بشيء، وذهبوا وفي وجدانهم، أنه إن يكن منهم عشرون صابرون يغلبوا مائتين!

حاربوا بحب للموت دفاع□ا عن الحياة، وحارب أعداؤهم بحرص على الحياة فخسروا كل شيء.

وكان العرب الذين حاربوا قد حسن إسلامهم وعمق إيمانهم ووجدوا الرسول ﷺ أمامهم قدوة يعرض نفسه على السيوف ولا يبالي، لقد تعلموا من الرسول القائد ومن الذين فقهوهم في شئون دينهم أن الذين يقتلون في سبيل الله أحياء عند ربهم يرزقون، وأن الاستشهاد دفاعا عما يؤمن به الإنسان هو أعلى مراتب الإيمان، وهو أفضل من الحياة الدنيا بكل ما فيها!

بهذا الحرص على الاستشهاد، وبالرغبة العارمة في أن يتقربوا إلى الله بالموت في سبيله، وهبت لهم الحياة، وتدفقت جحافلهم بقوة المد الزاحف تسحق المعتدين على العقيدة والوطن.

بوهج جبار من شعلة العقيدة اتقدت همم المسلمين الأوائل من رجال ونساء.

لم يعرف المسلمون الأوائل ما نسميه الآن "رجال الدين" فقد كان أفقه الناس بالدين هم طليعة المجاهدين.

لم يكن العبء ملقى على الجند وحدهم، ولكن كل من يقدر على حمل السلاح مطالب بأن يؤدي دوره في الجهاد.

وما كان أحد يستغني عن الجهاد بماله، كانوا يدفعون أكثر مما يطيقون من أموال، ويقتحمون نار الحرب مجاهدين بأنفسهم لا بأموالهم فحسب!

في بعض المعارك ألقى أبو بكر بكل ماله، وألقى عمر بنصف ماله، ولم يتخلفا عن الجهاد بالنفس، بل كانا في طليعة المجاهدين.

وكان أبو بكر وعمر وعلي هم أفقه الصحابة بأمور الدين، وما كان للفارس علي بن أبي طالب مال فيجاهد به، ولكنه جاهد في الله حق جهاده بنفسه، وما خاض معركة إلا وهو يسأل الله أن يرزقه الشهادة في المعركة.

وفي عصور مختلفة جاهد الفقهاء وأهل العلم بأنفسهم وأموالهم، لأنهم هم الذين يتخذهم الناس أسوة، ومن هنا تنبع

مسئوليتهم. والتاريخ يذكر مواقع شهدها السلف الصالح من العلماء على أعداء الوطن، كان يثبّتون العقيدة في النفس ويجعلون

خطواتهم آثارا يتبعها سائر الناس.

هكذا ربّي السيد أحمد البدوي وهو قطب للمتصوفين نفوس كثيرين، وأرسى في قلوبهم العقيدة، وجاهد ضد الصليبيين في المنصورة خلال حملة لويس التاسع.

وهكذا جاهد العز بن عبد السلام، وهو من أئمة أهل العلم ضد الصليبيين في دمياط، وهكذا جاهد ضد التتار.

وكثيرون غيرهم، جاهدوا بعلمهم ومالهم وجاهدوا بالنفس أيضا، وما زال التاريخ يذكر ابن تيمية الفقيه المجتهد، والرفاعي القطب الصوفي والآخرين.

وعندما أراد أحد السلاطين أن يفرض ضريبة على الناس ليعد الجيش للقتال ضد التتار أفتى فقيه جليل من العلماء بأنه لا يحق للسلطان أن يفرض ضريبة على الناس حتى ينزل الأمراء عما لديهم من أموال زائدة ومن أدوات الترف، وحتى تباع حلي نساء السلطان ونساء الأمراء، وحتى ينزل السادة عما هو فوق حاجتهم من المال والمتاع الكثير، وحتى يبذل القادرون كل وفق طاقته! وأمر السلطان بتنفيذ الفتوى.

وهكذا استطاع المسلمون أن يواجهوا غزو التتار، وأن يصدوه، وأن ينقذوا أرضهم والعالم كله من طغيان التتار.

فمن حيث تنبع العقيدة بفيض الإحساس بالقدرة.

لا بد من عقيدة، أية عقيدة، فما انتصر جند في معركة الحق والباطل إلا بفضل العقيدة.

يجب أن تعمر العقيدة كل قلب، وأن يشعر كل مواطن بأن الجميع على السواء يبذلون ويجاهدون بالنفس والمال.

ذلك أن الجهاد ليس مسئولية الجند وحدهم، ولكنه مسئولية كل القادرين.

وهذا هو ما يغني طاقة الأمة في مواجهة الأعداء، وما من أمة تستطيع أن تجاهد في الله حق جهاده، ما من أمة تستطيع أن تصد العدوان، وعدد من أبنائها يبذلون ويضحون كأنما كتب عليهم القتال هم وحدهم، والآخرون ينعمون بمتاع الحياة في النهار والليل ويرقدون آمنين في المضاجع، كأنما آمنوا أن الموت لن يبرز إليهم وهم من المضاجع!

وإذن فلتضيء العقيدة جنبات كل مواطن، وليشعر كل قادر أنه مطالب بالجهاد وأنه جندي في المعركة!

وكل عمل مخلص يؤدي إلى النصر هو جهاد في سبيل الله، فكل عامل في أي موقع من مواقع العمل والإنتاج، يتقن عمله مخلصا له، إنما يغني الأمة جميعا ويقدم بعمله المتقن

المخلص، إضافة للأمة تمكنها من التقدم ومن الانتصار على العدوان، فهو بهذا مجاهد في سبيل الله.

وبروح الجهاد تلك ينبغي أن يؤدي كل منا عمله؛ لأن طاقة الوطن التي تمكنه من الانتصار على الأعداء، وقوة الأمة التي تتيح لها التقدم، إنما هي مجموع ما يقدمه المواطنون من عمل وإنتاج.

والجهاد إذن يقتضي الإعداد المعنوي وإرساء العقيدة، ويقتضي أن يكون العلماء من أولي العزم وأن يكونوا هم وكل الذين يتولون أمور الناس أسوة حسنة لسائر الناس، وهو يقتضي بالضرورة الإعداد المادي، فليس الجهاد أن يلقي المواطنون بأيديهم إلى التهلكة، ولكنه يتطلب حسن الاستعداد بخير ما يتاح لهم من أدوات الحرب التي ترهب العدو وتكفل الانتصار عليه.

"وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

فَّ ِإلْ ُكمْ

ومن واجب الأمة أن تتسلح بكل ما يضمن لها النصر، لأن القتال وسيلة إلى غاية وليس هدفًا في ذاته، من أجل ذلك فإن كف المعتدون وجلوا عن الأرض التي احتلوها وأعادوا الذين أخرجوهم من ديارهم وآثروا السلام، فلا يجب الجهاد إذن، وكفى الله المؤمنين القتال: " جنحوا ِ لسلم َفاجنح وإن للـ ِ ح
َلـ ا ۞ ولكن الجهاد يتعين عند العدوان وإخراج فريق من الأمة من ديارهم؛ إذ ذاك يصبح واجبا يتعين أداؤه على كل فرد في الأمة، والأمة في المفهوم الإسلامي لا تعني هذا القطر أو ذاك من الدول الإسلامية وإنما تعني كل بلاد المسلمين كافة، كما قلنا آنفًا، بلاد المسلمين بكل المواطنين فيها من مسلمين وغير مسلمين.

وإذن فكل بلاد المسلمين مطالبة شرعا بأن تعد ما تستطيع من قوة لترهب به العدو، ولتمكن المجاهدين من القتال الذي يجب أن يصل إلى النصر، لرد الحق وفرض العدل – والله يعد الذين ينفقون من أموالهم لإعداد هذه القوة بأن يوفوا أجورهم وهم لا يظلمون، وهو ينذرهم إن لم يقوموا بواجبهم هذا بجزاء الظالمين!

وما تملكه الأمة من سلاح هو سرها، وهي تعتمد في جهادها على المباغتة، وما ينبغي أن تتاح معرفته للعدو، ولا أن ينشر عنه على نحو ما يحدث الآن، وهذا كله يناقض ما أوصى به الرسول من وجوب الحرص على السر العسكري.

وما ينفقه المسلمون من مال على إعداد القوة التي ترهب عدوهم، ليس صدقة وإن لم يتبعها منّ ولا أذى، ولكنه واجب شرعي على المسلم القادر أن يؤديه، فإن لم يؤده فهو آثم قلبه، وآثمة قلوب الذين ينفقون على ملذاتهم وأهوائهم أضعاف ما ينفقون على الجهاد.

وآثم قلب كل غني من المسلمين، يرى أن ما نعده من قوة في مواجهة الأعداء في حاجة إلى المال، ولا يؤدي بعد ذلك حق الله.. إن ما ينفقه القادرون من أموال لإعداد ما نستطيع من قوة ليس حق الأمة فحسب، ولكنه حق الله في هذا المال.. فلنتذكر كم كان ينفق المسلمون الأوائل في إعداد الجيوش.

إننا مطالبون بأن نعد ما نستطيع من قوة، وما نستطيع هو ما نقدر عليه بكل طاقتنا، هو كل ما في الطوق، وإذن

فالمسلمون القادرون مسئولون أمام الله عن حشد ما يستطيعون من قوة، وأن ينفقوا في سبيل الله كل المستطاع، ولا أحد ينتظر منهم أن يعيشوا كما عاش الرسول ❐ وأبو بكر وعمر وعلي، ولكنهم في الوقت نفسه لا يستطيعون أن يتحدثوا عن الإسلام وهم لا يجاهدون حتى بأموالهم كما ينبغي، ولا ينفقون ما يستطيعون لنعد القوة التي نرهب بها عدوا الله وعدونا، ونصد المعتدين!

ولئن أنفق القادرون في بلادنا على إعداد هذه القوة عشر معشار ما يستطيعون، ولا نقول كل ما يستطيعون – كما يجب عليهم شرعا – لأصبحت القوة العربية قادرة على أن ترهب العدو، وعلى أن تفرض العدل وتصون حقوق الأمة جميعا، حتى قبل أن تتحرك! إنها مسئولية أهل العلم وأصحاب الفتوى أن يبصروا أهل الغنى وأصحاب المال والسلطان بما يجب عليهم لإعداد القوة، وليست القوة هي السلاح فحسب وإنما هي كل المرافق التي تخدم الجيوش.

لقد فرض الله الجهاد، وجعله طريقًا إلى المغفرة والجنة، وفضل المجاهدين على العابدين؛ لأن في الجهاد حياة الدين والأمة جميعا.

وما جدوى الصلاة والصيام والزكاة والحج؟!

وما جدوى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله؟!

وما جدوى كل أركان الإسلام إذا كانت كل القيم التي جاء بها مهددة بأن تهدر تحت أقدام الغزاة الذين أخرجوا فريقًا منا من ديارهم واعتدوا على أرضنا، يظاهرهم آخرون، ما زالوا يجدون من هذه الأمة من يتخذهم أولياء؟!

إن جهادا في سبيل الله بالنفس والمال لأزكى عند الله من كل صلاة وصيام وزكاة وحج، وقد ورد عن السلف الصالح أن جهاد يوم في سبيل الله أحب إليه تعالى من عبادة سنين، وورد عن الرسول أنه تمنى لو يجاهد فيقتل ثم يجاهد فيقتل ثم يجاهد فيقتل.

فليذكروا هذا، والذكرى تنفع المؤمنين.

***

على أني لست صاحب فتوى ولا رجل دين، وإنما أحد الذين اختاروا الكلمة أداة للتعبير، وأشعر منذ اخترتها بأن من بين مسئولياتي أن أدافع عن كل القيم الفاضلة في تراثنا، وأن تنشر هذه القيم على عصرنا، لنتخذ من الماضي عبرة،

ولتكون لنا في لحظاته المضيئة أسوة وهدى؛ وليطمئن قلب معذب، وتمتلئ بالثقة نفس يغشاها الأسى على ما نحن فيه، ذلك أننا استطعنا ذات يوم من تاريخنا أن نصنع نبض الحضارة وأن نقيم دول العدل والإخاء والمساواة والحب على هذه الأرض، فنحن إذن نملك القدرة، ونستطيع أن نصنع لنا حياة أفضل، وأن نصوغ المستقبل كما نريد.

وبعد، ففي القرآن آيات عن الجهاد محكمات، والأحاديث كثيرة، ومواقف السلف الصالح لا تحصى فليتأملها المسلمون كافة والقادرون منهم خاصة، وكثير منهم يتلون القرآن ويحبون أن يعملوا بما فيه، ويريدون أن يلتزموا بما جاء في الحديث وأن يتشبهوا بالسلف الصالح، فلينظروا إذن إلى مسئولياتهم ولينهضوا بها.

فليبذلوا من أموالهم في الجهاد ما يزكيهم ويطهرهم، وليؤدوا جميعا فريضة الجهاد كما شرعها الله: " أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿ ﴾.!

***

الحريـــة

جاء الإسلام في مجتمع يسوده نظام الرق، فحض السـادة على
عتق الرقاب، وحرض العبيد على السادة، لأن الإنسـان
ليس عبدا إلا الله وحده.

والإسلام عقيدة وشريعة.

فإلى من يتجه الإسلام؟

إنه يتجه بالعقيدة إلى العقل الـذي يستطيع أن يهتـدي
ولا إكراه في الدين، ويتجه بكل ما فيه مـن أوامـر
ونـــواهٍ ومبادئ ونظم إلى الإرادة الحرة التـي تسـتطيع
أن تحـددللإنسان كل تصرفاته وتقود خطواته علـى
الطريـق الـذي
يختاره بلا قهر.

وكل تصرف تحت ضغط القهر باطل.

وكل إيمان تحت وطأة الإكراه زيف.

وإذن فالحرية في الإسلام، ليست حقا للإنسـان فحسـب،
ولكنها شرط أساسي للوجود الإنساني، وهي بعد من مقومات
الفرد والمجتمع.

الحرية هي أساس التكليف الشرعي، وشرطه.

والإسلام ليس دين طقوس أو شكليات خاصة، ولكنه دين يخاطب القلب والعقل جميعا.

فالعقيدة تنبع من القلب يفجرها اليقين العقلي، والشريعة مجموعة من المبادئ والقواعد تنظم العلاقات الاجتماعية بين أفراد من العقلاء ذوي الإرادة، والواعين بما يصنعون المدركين لما يأخذون ويدعون من أمور الحياة.

والإسلام لا يعترف بعبودية الإنسان لأحد، إلا بعبوديته لربه، وهو يرى في هذا تشريفًا للإنسان، وتمكينًا له من الإحساس بالحرية في مواجهة كل القوى؛ لأن إحساس الإنسان بأنه عبد الله وحده، هو الذي يميته ويحييه، وأن كل شيء بإذن الله، فالله هو الذي يأذن للإنسان بأن يعمل كما يشاء ويحاسبه بعد هذا على أعماله، إحساس الإنسان بهذه الحرية، وبهذا الانتماء للخالق، يمنح الإنسان قوة في مواجهة المخلوقات، ويتيح له القدرة على الاستغناء عن كل ما في الأرض، فهو قوي بعبوديته الله، وهو لا يركع لأحد سواه، ولا يذعن إلا لأمر ربه، وهو إذن قادر على أن يحمي الحق ويحارب الباطل مهما تكن المشقة والعنت؛ لأن الله يثيبه على هذا العمل الصالح، والإنسان بعد هذا ليس في حاجة إلى أحد

من المخلوقات فينحني له، لأنه لا يبغي إلا وجه ربه، فهو وحده الذي يبسط الرزق ويقبض.

بهذا الإيمان كان المسلمون الأوائل أشداء على الباطل، رحماء بينهم لا يخشون في الحق لومة لائم.

وبهذا الإيمان يصبح المؤمن الحق أمة وحده، وبهذا الإيمان تتفجر الطاقات المبدعة في الأمة.

وما ظننا بمجتمع يعرف كل فرد فيه أنه لا فضل إلا بالعمل، وأنه مطالب بالصدق، وبالدفاع عن الحق، وبالثورة على الباطل، وأنه لا ينشد العزة عند أحد لأن العزة لله جميعا، وأن ما ينفع الإنسان في الحياة وبعد الموت إنما هو ما تقدم يداه من خير للناس ومن عمل يغني به الأمة، وأن أحدا لا يملكه، ولا يقهره ولا يبغي عليه، فهو في كل خطوة ونأمة وحركة، لا ينشد رضا أحد من المخلوقات، ولا يتقي غضب مخلوق مثله، وإنما ينشد رضا الله ويتقي غضب الله؟

***

في عصور الإسلام الزاهرة، كان هذا هو ما يسود المجتمعات الإسلامية الأولى، من أجل ذلك أضاءت العقول

بالمعرفة والحكمة، وفاضت على الدنيا من حولهم، فصنع العرب الحضارة، وقدموا للحياة الإنسانية إضافات يسرت الحياة على الإنسان، وجعلت العالم أكثر نضارة.

وفي تلك العصور المضيئة من تاريخنا، كان المجتمع الإسلامي عامرا بأولئك النفر الذين يؤمنون بأن خلاصهم في الاستغناء عن المخلوقات، فلا سبيل لأحد على قلوبهم أو عقولهم إلا الله، هو وحده الذي يحاسبهم على كل شيء فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

من أجل ذلك كانوا يملكون شجاعة القلب، وكان كل واحد منهم يملك القوة التي يفجرها الإحساس العميق بغنى النفس، وبأنه هو الغني الحق، وكان كل واحد منهم طاقة بأسرها من الصدق، ومن مجموع هذه الطاقات أثرت المجتمعات الإسلامية بالحقيقة ونور المعرفة وكل وسائل التقدم والعلم.

من أجل ذلك رسخت قواعد العدالة وأصول المعاملات التي تحترم مشاعر الإنسان وآماله، وتقدمت العلوم وأصبحت الحياة جنة من الحب والجمال والإبداع، ومتاعا رائعا من اليسر والرفاهية والبهجة التي تشيعها الثقافة، وأصبح

المجتمع الإسلامي قوة تفرض الهيبة والعدل، ومنارة شامخة تلقي بأنوار الحضارة على العالمين.

ثم مرت عصور وعصور.

ولأمر ما فقد الإنسان العربي إحساسه بالاستغناء عن المخلوقات وعن عرض الحياة الدنيا، وفقد إيمانه بأنه لا فضل لإنسان على آخر إلا بالعمل.

وهكذا فقد الإنسان حريته أمام الحياة والناس.

وبدلاً من الشعلة المباركة التي أضاءت بها الأعماق في الأيام الزاهية الغاربة، حل رماد ثقيل بارد مظلم، عقيم!

وبدلاً من أن تتجه العقول المستنيرة إلى اقتحام الخفاء والخطر من أجل إثراء الحياة، لا تريد إلا وجه الله؛ اتجهت العقول المثقلة بأحلام الغنى والسلطة والنفوذ إلى اجتلاب الرضا من وجوه أخرى غير وجه الله!

وبدلاً من عزة الإيمان بالرب الواحد الأحد، اتخذت القلوب المفتونة أربابا آخرين!

وهكذا سار أصحاب القلوب المعتمة من جيل إلى جيل يسجدون للأرباب الجدد!

وهكذا عطلت الدنيا من كل مباهجها العقليـة والثقافيـة، كأنها لم تغن من قبل!

من أجل ذلك كان على الذين يعبرون بالكلمة أن يـذ ّكروا الناس في عصرنا هذا بميراثنا العظيم من القيم التي ما زالت تملك القدرة على أن تنطلق بكل عصارة الحياة في حاضرنا ومستقبلنا.

وليست الذكرى عزاء، ولكن فيها ما تطمئن به القلـوب، وما يذكي الضمائر الحية، وما ينفع الإرادة الواعية".

***

الحرية في الإسلام من مقومات الوجود الإنساني كمـا أسلفنا، فالإنسان في نظر الإسلام مسئول عن كل ما يفعلـه، وهو مأخوذ بهذا الفعل عقابا أو ثوابا، فهو لـذلك لا يمكـن إلا أن يكون حرا مريدا لما يفعل لكي يمكن حسـابه، فكيـف يحاسب على ما فعله وهو مـكره أو غير مريد؟

وللإنسان عقل وبصيرة يميز بها الخبيث من الطيب.

وقد كرم الله العقل.

جاء في حديث قدسي في مخاطبة العقل: "وعزتي وجلالي ما خلقت أكرم عليَّ منك، بك آخذ وبك أُعطي، وبك أثيب وبك أُعاقب".

ومن هنا تصبح الحرية في الإسلام لاحقًا للإنسان فحسب، بل واجبًا، عليه أن يمارسه.

وقد دار خلاف عريض بين قادة الفكر الإسلامي حول حرية الإنسان في اختيار أفعاله، كيف يختار الإنسان أفعاله، وكيف يكون حرا أمام الحياة، والله فعّال لما يريد وكل شيء بإذن الله؟

أما الذين قالوا بأن الإنسان لا يختار أفعاله لأن كل شيء بإذن الله، فقد انتهوا إلى إصدار الفتاوى بأن كل ما يفعله الحاكم؛ إنما هو القضاء السابق والأمر النافذ.

وأصحاب هذه الفتوى هم الذين أحدثوا شرخًا في الإسلام، فمكنوا لولاة الأمور أن يسيروا في الناس بالظلم، لقد استكرهوا تأويل نصوص القرآن، وزيفوا الأحاديث في كثير من الأحايين، لكي يسبغوا على امتيازات الطبقات الحاكمة وتصرفاتها، شرعية ليست لها.

وهكذا خرج كثير من أولياء الأمر وحكام المسلمين على طريق النبي ❐ وعن طريق الخلفاء الراشدين، وتأثروا بأساليب الحكم والامتيازات الطبقية في البلاد المفتوحة، وأرادوا أن يحولوا نظام الخلافة الرشيدة إلى قيصرية طاغية، واستأجروا أصحاب الفتوى وأقطعوهم الضياع وأجروا عليهم ما هو فوق الحاجة من الأرزاق وربطوهم

بمصالح! وهكذا كانت البطون التي ملئت بالحرام هي التي تنفث

الفتاوى لا القلوب التي يجب أن تضيء بالإيمان، ولا العقول التي تتمتع بالقدرة على أن تكشف الحقيقة لا تخشى في الله بغيًا ولا طغيانًا، ولا تنشد إلا اطمئنان الضمير ورضا الله.

ولكن أغلب العلماء لما يكن على هذا الرأي، فمازلنا نحتفظ من الماضي بأصوات عظيمة صرخت في مواجهة الطغاة، " إن هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين ويأخذون الأموال ويقولون إنما تجري أعمالنا بإذن من الله".

وقد كان أحد هؤلاء العلماء الذين احتفظوا في أعماقهم بالجسارة التي يصنعها الإيمان يدخل على معاوية فيقول:

"السلام عليك أيها الأجير"، فيقال له: "قل أيها الأمير"، فيقول: "بك هو أجير يرعى مصالح الأمة".

وقد ألح أحد هؤلاء العلماء على أحد الخلفاء المتأخرين برأيه في سيرة الخليفة فضاق به، واستدعاه الخليفة، فجاء العالم ومعه أربعة آلاف ممن جهروا بنقد الخليفة، وأدخل العالم إلى القصر، وترك أشياعه في الخارج، وأمر الخليفة بالعالم فقتل، ولفوه في بساط ووضعوه تحت سرير يتكئ عليه الخليفة، واستدعى الخليفة صاحب مشورته، وهو أحد الفقهاء المنافقين فسأله عن العالم الذي جهر بنقده.

ولمح الفقيه (ساق) العالم القتيل تبدو تحت السرير بين اللفائف مضرجة بالدم، فأدرك صاحب المشورة أن الخليفة قد قتل العالم، فقال، فقال له: "أضرب عنقه يا أمير المؤمنين"، فقال الخليفة: "جزاك الله خيرا فما علمتك إلا ناصحا أمينًا موافقًا".

وكم ذاقت الأمة عبر عصورها حتى اليوم من أمثال هؤلاء الحكام وهؤلاء الناصين الموافقين المنافقين! وما أكثر ما تزيغ القلوب!

***

على أن الذي صاغ للأمة وجدانها هم العلماء الصادقون الذين فهموا الإسلام حق فهمه، واسترشدوا بسيرة النبي والخلفاء الراشدين والصحابة الأوائل، فأشعلوا في كل نفس إحساسها بالقدرة على مواجهة الظلم، وإيمانها بالحرية أمام الحياة والبشر.

وهؤلاء هم الذين أثَّروا في سواد الناس، وأغنوا الأمة بطاقات كل أفرادها، ومن الصراع الجبار بين الأمة بقيادة هذا السلف الصالح، على جانب من الحياة والدين، وبين الطغاة وموافقيهم من أصحاب المشورة والفتوى على الجانب الآخر، اكتشف أصحاب البصائر ما في الإسلام من النور، فانتصرت قوى الحق، ودعمت القيم الفاضلة، وحققت الأمة العربية لنفسها الازدهار، وللعالم حضارة كالمعجزة.

ذلك أن هؤلاء القادة من علماء المسلمين وفقهائهم ومفكريهم – باستنباطهم البصير الواعي لأحكام الإسلام – أدركوا أن الإنسان لا يمكن أن يكون مجبرا فيما يفعل ويجعله الله بعد ذلك مسئولاً ومأخوذًا بما يفعل!

فحرية الاختيار تنبع من العدل الإلهي، فلو أن الله حاسب الإنسان على عمله والإنسان مجبر على هذا العمل، لكان هذا

ظلما للناس والله تعالى يقول: " لاَ ظْ شَيْئًا وَلـ
م النَّاس كن

النَّاس أَنْفُ هم يَظْلِمون ﴿.
سـ

من الحق أن كل شيء بإذن الله، ولكن إذن الله غير إرادة الإنسان، فقد أذن الله للناس أن يعلموا كما يشاءون، ليحق عليهم الحساب بعد هذا وليكون الثواب والعقاب.

كل شيء بإذن الله هذا حق لا يأتيه الباطل، ولكن الله خلق هذه الدنيا دار عمل وتكليف، فالإنسان فيها حر الإرادة حتى يتم التكليف ويصح الثواب والعقاب، وإلا كان الحساب والثواب والعقاب، ظلما وباطلاً يتنزه عنهما الله تعالى.

المستبدون وحدهم هم الذين يرسخون في العقول أن كل عمل وكل شيء بقضاء سابق وحكم نافذ، بمعنى أن الإنسان ليس حرا في عمله، فعمله بل وقدره مكتوب عليه من قبل، مكتوب على الجبين.!

وهذا الفكر غريب عن الإسلام، وهو يعطي الرخصة للطغاة ليستبدوا، ويشرع للمستغلين ليستغلوا، ويبرر الامتيازات الطبقية والفروق الشاسعة بين الأغنياء والفقراء.!

ففي رأي هذا النفر من محرفي نصوص الشريعة ومفسدي معانيها، أن أشكال الاستغلال والامتيازات مقسومة،

ومكتوبة على الناس، فكل المظالم يجب أن يتقبلها النـاس مستسلمين مؤمنين.

كل شيء وكل ما تراه وستراه العيـون مكتـوب علـى الجبين.

إنه فكر غير إسلامي، تسلل من بعض العقائـد الوثنيـة الهندية، حتى بفكرة الكتابة على الجبين – بالتحديد – وهـي عقائد كانت تبرر في الهند استبداد الحكام وغناهم الفـاحش، واستغلال الفقراء وسرقة ثمرات أعمالهم.

أما الإسلام فهو يتجه إلى إنسان حـر الإرادة، ويوجـب عليه أن يمارس حريتـه فـي العمـل والقـول والموقـف، وإلا فلماذا أرسل الله الرسل؟ " قَدْ جاءكُمْ بصائِرُ مِن ربكُمْ

فمَنْ أَبْصَرَ فلِنَفْسِهِ ومَنْ عمِيَ فعَلَيْها ".

مشيئة الإنسان وإرادته الحرة هي أساس الحساب، وهـي مناط التكليف.

" وقُلِ الْحقُّ مِن ربكُمْ فمَن شَاء فلْيؤْمِن ومَن شَـاء فلْيكْفُرْ ". إذا كان كل شيء من غنى وفقر وحظ في الحياة مكتوبـا على الجبين كما أراد المستبدون وموافقوهم أن

يشيعوا فــي

الناس ليذعنوا للظلم والتفرقة فلماذا إذن قال الله تعالى: **" إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا "؟**

بل إن الله أمر رسوله بألا يكره الناس على الإيمان:

" أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ "، ثم رسم له

طريق الدعوة ونبهه إلى كفالة حرية الاختيار للإنسان:

" فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ".

وهكذا رأي بعض المفكرين والفقهاء المسلمين الأوائل تأكيدا لحرية الإنسان وإعمالاً لعقله الذي تخاطبه التكاليف الدينية: أن الإيمان الموروث ليس إيماناً صحيحا وأن من واجب المؤمن أن يتدبر بعقله ليهتدي إلى الإيمان، بل إن منهم من غالي فجعل الشرط الأول للمعرفة هو الشك، ومنهم من جعل جميع القضايا التي كانت لا تقبل المناقشة موضوع برهنة، وعن هذا الطريق الذي يعمل فيه العقل عمله في التأمل والتدبر يحصل الإيمان اليقيني وهو الإيمان الحق.

وإذن فحرية الإرادة والاختيار والعمل والموقف شرط للتكليف، ومبرر للحساب والثواب والعقاب، وهكذا يبعث الله

الرسول في زمنه، ليهدي الناس إلى الحق ويأمرهم

بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويدعوهم للتي هي أحسن ثـم يحاسبهم الله بعد هذا على أساس حـريتهم فـي التصـرف وعلمهم بالخير والشر، وإعمالهم لعقـولهم الواعيـة لتميـز الخبيث من الطيب، وبدون هـذا فـلا حسـاب ولا عقـاب ولا ثواب.

" وما كنَّا معذِّبين حتَّى نَبْعَثَ رسولاً ﴿﴾.

وهكذا جاء الإسلام بمبدأ أكثر إنسانية وتطورا من المبـدأ الذي تقره قوانين اليوم، فالجهل بالشريعة عذر يعفـي مـن العقاب، أما الجهل بالقانون فلا يعفي من العقاب.

لقد قرر الإسلام مبدأ حرية الإرادة والاختيـار لأن فيـه إعمالاً للعدل الإلهي، وفيه صلاح الإنسان وحماية لإنسانيته، بقدر ما رفض فكرة القدر الأولى الذي يقهر إرادة الإنسـان كقوة صماء، لأن في هذه الفكرة إهدارا لإنسـانية الإنسـان الذي خلقه الله على صورته، وأمر الملائكة بأن يسجدوا لـه فسجدوا، ولأن فيه دعوة للإذعان للظلم والقهر والاسـتبداد، وما جاء الإسلام إلا ليحرر نفس الإنسـان مـن كـل هـذه الموبقات.

وبهذا الفهم سار الخلفاء الراشدون من بعد النبي ❐.. بهذا الفهم قال عمر بن الخطاب لفاتح مصر عمرو بن العاص "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا"؟

الناس يولدون أحرارا ويعيشون أحرارا، ويجب أن يمارسوا حريتهم، فممارسة الحرية واجب شرعي.

هكذا تعلم عمر من الرسول، وهذا وحده هو الطريق الصحيح لسياسة أمور الأمة في الإسلام.

الحريات العامة مكفولة، والمسلم مطالب بأن يمارسها لأنها ليست امتيازا له أو حقا يستطيع أن يتنازل عنه، ولكنها واجبات شرعية، وإذا كان الله قد منحه حرية الاختيار ليصح الحساب، فما من حق أحد أن يحرمه هذه الحرية أبدا، وقد كان الرسول يحض الناس على أن يمارسوا حرية الرأي، فكان يسألهم ويستفتيهم فيما لم ينزل فيه قرآن، وقد قال عنه بعض صحابته "ما رأيت أحدا كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ❐" وقد ورد عنه أن أحد الصحابة سأله: "ما الحزم؟" فقال الرسول: "تستشير الرجل ذا الرأي ثم تمضي إلى ما أمرك الله".

وقد نشأ علي بن أبي طالب في بيت الرسول وتربى منذ صباه الباكر على سنته، ولزمه كالتلميذ للأستاذ، وكان يداوم على مساءلته عن كل شيء.

قال له يوما: "يا رسول الله، الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن ولم يمض فيه منك سنة"، فقال الرسول: "أجمعوا له العالمين من المؤمنين فاجعلوه شورى بينكم، ولا تقضوا فيه برأي واحد".

وقد حض أبو بكر عندما ولي الأمر جموع المسلمين على ممارسة حرية النقد فقال في أول خطبة بعد انتخابه: "إن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل

فسددوني". إن الشورى هي قوام الحكم في الإسلام، فكيف تتحقق الشورى إن لم تنبع من حرية الفكر، وحرية الموقف، وحرية التعبير وحرية النقد؟

إن الشورى هي ملاك الأمر كله لا باجتهاد الفقهاء ولكن بنص قرآني وبسنة رسول الله: " وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ"، هكذا تصبح الحرية وظيفة اجتماعية يؤديها

الحاكم والمحكوم والمجتمع كله.

والشورى تنتهي إلى قرار، يجب أن يلتزم به الجميع على

السواء. وهنا تصبح الحرية أداة لإقرار النظام، وحماية للمجتمع

كله، وضمانا لتقدمه.

والحرية في الإسلام، هي حرية الإنسان بوصفه عضوا عاملاً في الأمة، فليست الحرية أن يترك الناس سدى، أو أن يمارس أحدهم ما يضر المجتمع ويعوق تقدمه أو أن يؤذي حرية أحد أو يهدد مصالح سواه.

وقد ضرب رسول الله مثلاً للأمة، بقوم كانوا في سفينة يأخذ الذين في أسفلها ماءهم من الذين هم في أعلاها، فأراد الذين في أسفل السفينة أن يأخذوا ماءهم من النهر، فخرقوها، حينذاك أصبح من الواجب على قائد السفينة أن يمنعهم ويعاقبهم لأنه إن تركهم أغرقوا السفينة بمن فيها، وإن أخذ على أيديهم نجوا جميعا.

***

والإسلام يكفل كل أنواع الحرية بما فيها حرية العقيدة، وذلك بنص القرآن: " **لا إكراه في الدين** "، وبما جرى عليه

الرسول ❐ في مسيرته كلها في الحرب والسلم.

وقد تزوج الرسول بمارية القبطية، وكان حفيا بها، وقد أمن أصحاب العقائد وأوصى بحسن معاملتهم ما لم يعتدوا، وما ظلوا مسالمين.

وعلى هذا سار الخلفاء الراشدون.

وعندما فتح المسلمون القدس دخل عمر مدينة الأنبياء والديانات الثلاث على قدميه إكبارا لها، ودعاه رئيس قساوسة الكنيسة ليصلي فيها، ولكنه رفض لكيلا يفعلها مسلم من بعده، وأمن أصحاب الديانات على ديانتهم، وعلى هذا سار المسلمون مع أصحاب العقائد الأخرى متمثلين قول الرسول بما معناه: "استوصوا بالقبط خيرا".

وهكذا ظلت لليهود والنصارى عقائدهم وطقوسهم الدينية يمارسونها في حرية، وظلت شرائعهم الخاصة تحكم كل علاقاتهم في الأحوال الشخصية تأسيسا على ما أمر به الله ورسوله.

***

وإذا كانت الحرية في الإسلام من مقومات الإنسان، والتمتع بها حق له وممارستها واجب عليه، فالدفاع عن

الحرية في مواجهة الظلم واجب شرعي، وليست حقا مشروعا فحسب.

الدفاع عن حرية الشعب حق وواجب متلازمان تلازما لا انفكاك له، ومن هذا الفهم للحرية، انتفض علماء وفقهاء أجلاء في مواجهة حكام ظالمين عبر العصور دفاعا عن حرية الأمة، وبعضهم لقي في هذا بلاء عظيما، ولكنه صبر وصابر معتبرا البلاء امتحاناً من الله، ومضى في سبيل الله يجاهد الظالمين دفاعا عن حريات الأمة، وما زال تراثنا يتألق بمواقف أبي ذر الغفاري كلما اعتقد أن ولي الأمر يعدو على حريات الأمة أو على حقوقها.. جهر بنقده.

وفي صفحات جليلة من تراثنا تضيء مواقف ابن حنبل وابن تيمية والعز بن عبد السلام في مواجهة حكام ظلموا الناس أشياءهم وعدوا على حرياتهم.

وتاريخ الأزهر الشريف نابض بمواقف العلماء والطلاب عبر العصور، وتسطع في هذه الصفحات مواقف السيد عمر مكرم في طليعة علماء الأزهر.

وقد كانت أول وثيقة دستورية في العصور الوسطى هي تلك الوثيقة التي كتبها علماء الأزهر بعد أن خرجوا على

أمراء المماليك ومن خلفهم جموع الأمة، فألزموا الأمـراء، باحترام حقوق الشعب وحرياتهم، وإلا لم تجب لهم طاعة بل وجب عليهم أن يعتزلوا ولاية الأمر!

وفتاوى كثير من علماء الأزهر في عصـورنا المظلمـة أضاءت الطريق أمام الزحف الثوري.

فمن القوى المؤمنة والعقول المستنيرة، صدرت فتاوى بأن لا طاعة لحاكم يحالف أعداء الوطن، أو يقمع حريات الناس، لأنها إذن طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وهكذا خلع العلماء حكاما كثيرين في عصور المماليك.

وفي القرن الماضي خلال الثورة العرابية خلـع علمـاء الأزهر الخديوي توفيق، وأفتوا بأن طاعته معصية الله؛ لأنـه حالف الإنجليز ضد حريات الشعب، وحقوقه المشروعة.

وما كان العلماء يكتفون بالفتوى بـل كـانوا يناضـلون بأنفسهم وأموالهم دفاعا عن حريات الشعب، وهكـذا شـارك علماء مصر في ثورة عرابي سنة ٢٨٨١ وفي ثـورة سـنة ٩١٩١ وفي كل ما حفظه لنا التاريخ من الانتفاضات الشعبية ضد طغيان الحكام كانوا هم في طليعة الثائرين باسم الإسلام.

وهكذا ناضل الكواكبي في سوريا، وناضل الأفغاني على طول الأمة العربية والإسلامية وعرضها.
وهكذا ناضل آلاف من الذين أشربت قلوبهم مبادئ الإسلام وحقائقه وفهموا دوره الثوري في تحرير الإنسان وتحقيق العمران وإنجاز التقدم وحماية إرادة الأمة وصيانة

حريتها. وما زلنا نذكر قيادة الأزهر لثورة القاهرة ضد الحملة

الفرنسية.

***

والدفاع عن حرية الأمة عندما يدهمها العدوان الأجنبي واجب على كل مسلم، والأمة في المفهوم الإسلامي هي كل أرض يعمرها المسلمون كما قلنا آنفًا.
وإذن فالدفاع عن حريات وحقوق شعب فلسطين، والدفاع عن الأرض العربية المحتلة ضد المعتدين والذين يساعدونهم، هو واجب شرعي على كل مسلم قادر، وهو ليس واجبا فحسب، ولكنه فرض لا يغني أحد في أدائه عن غيره، وهذا هو الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال.

فليذكر أغنياء المسلمين جهاد عثمان بن عفان بكل ماله مرة بعد مرة دفاعا عن حرية العقيدة المسلمين.

إن كل من في الأمة الإسلامية على اختلاف أقطارها لمطالب بأن ينفر اليوم بنفسه وماله دفاعا عن حرية الأمة وعن حقوقها، فإن لم يفعل حق عليه غضب الله: " **إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ".

***

العـــدل

هدف الإسلام هو تحقيق مصالح الناس، وقد تنبه السلف العظيم لهذا الهدف فقال الغزالي: "إن مقصود الشرع من الخلق خمسة، وهو أن يحافظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الخمسة فهو مصلحة وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة، ودفعها مصلحة".

وقال الشاطبي: "إنا وجدنا الشارع قاصدا لمصالح العباد، والأحكام تدور حيثما دارت (مصالح العباد) فترى الشيء الواحد يمنع في حال لا تكون فيه مصلحة، فإذا كان فيه مصلحة جاز".

ولن تتحقق مصالح الناس فيحقق الإسلام هدفه إلا إذا اتسقت في نظام في دقيق يوفق بين هذه المصالح، فدقة الميزان وحدها هي ضمان تحقيق مصالح الناس على أكمل وجه، وهذا هو العدل، وإذا كان هدف الإسلام هو تحقيق المصالح، وإذا كان العدل هو وحده الذي يستطيع أن يوفق

بين هذه المصالح فلا تعدو إحداها على الأخرى، فالعدل إذن في الإسلام هو سبيل الله ليسوس نظام الكون والحياة.

العدل هو الذي يضبط ميزان الأمور جميعا، وبدونه يختل كل شيء ويفسد الكون، وعلى هذا العدل المنضبط يسير نظام الأفلاك " **لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴿ وعن هذا النظام الكوني ودقة تدبيره بالعدل الكامل قال تعالى: " **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴿.

بل إن الله في خطابه للناس – وقد خلقهم ولهم قلوب يفقهون بها – يدلل على وحدانيته بهذا العدل في نظام الكون فيقول: " **وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴿.

ولعل من شرف العدل أن جعله الله تعالى دليلاً على وحدانيته.

وإذا كان الله تعالى قد جعل حركة الكون على هذه الصورة من العدل، فإنه أراد هذا العدل لحركة الحياة كلها، ولحركة الإنسان، إن قوام النظام في الإسلام قائم على العدل.

فالإنسان حر الإرادة، ولكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ليحقق الله العدل في الحساب وفي الثواب والعقاب، وإلا كان الحساب والعقاب والثواب باطلاً: **" ما خلَقْتَ هـذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ﴾.**

ولقد يواجه الإنسان بلاءً شديدا، فعليه أن يختار طريقه وأن يعمل بحر إرادته، ولقد تفتنه بعض الوقت انتصارات تحققها القيم الفاسدة، فعليه أن يتمسك بما يؤمن به من قيم فاضلة ومبادئ وسيرة، وأن يناضل بكل ما في طاقته ليظل شريفًا مقاتلاً في سبيل الحق والخير لا يزيغ بصره أمام بريق: **" قُلْ لاَ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾.**

***

والعدل في الإسلام هو عدل مع الذات، وعدل مع الآخرين، وعدل يقوم عليه نظام المجتمع، وهو ما يعرف بالعدالة الاجتماعية.

أما العدل مع الذات فيتضمن كل المبادئ الإسلامية التي تهذب الروح وتثقف العقل، ذلك أن الإنسان أشرف الكائنات،

وقد طالبه الإسلام بأن يتحلى بأكرم الصفات، فقال رسول الله ﷺ: " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

وكل الفضائل التي جاء بها الإسلام وحض عليها، وأمر بها هي وسائل تدريب وتربية لتجعل الإنسان بحق أشرف الكائنات، فالإسلام يطالب المؤمن بأن يضيء عقله بالعلم، فالعلم هو طريق الإيمان والتقدم، وقد قال بعض السلف إن العلم هو ما يميز الإنسان عن الحيوان، وقد قال رسول الله من قبل: "خصلتان لا تكونان في منافق: حسن سمت وفقه في الدين"، وقال الإمام الغزالي معلقًا على هذا الحديث "ولا تشكن في هذا الحديث لنفاق بعض فقهاء الزمان فإنه ما أراد به الفقه الذي ظننته، وأدنى درجات الفقيه أن يعلم أن الآخرة خير من الدنيا، وهذه المعرفة إذا صدقت وغلبت عليه، برئ بها من النفاق والرياء".

طلب العلم والنظر فيه والعمل به هو أحد أبواب العدل مع النفس، ليحق قول الله على الإنسان تشريفًا له: ❝ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾.

وطلب العلم والنظر فيه والعمل به أزكى وأقوم من طلب كل المنافع في الحياة، ولعل أكثر ما يفتن قلب الإنسان هو

طلب المال، من أجل ذلك قال علي بن أبي طالب وهو يبصر المسلمين بحقائق الحياة والموت: "خير من المال العلم، فالعلم يحرسك وأنت تحرس المال".

ومن أبواب العدل مع النفس الالتزام بالقيم والفضائل التي جاء بها الإسلام: قول الحق، وأداء الأمانة، وإتقان العمل وحسن الأداء، ثم السعي بين الناس بالصلح، والسماحة، والعفو عن المسيء، وكظم الغيظ، وفي سيرة السلف الصالح أمثلة لا تُحصى لالتزامهم بهذه الفضائل، بلغ زين العابدين (علي بن الحسين بن علي)، أن رجلاً من ذوي قرباه قد دأب على انتقاصه وشتمه أمام بعض الرجال، فذهب زين العابدين على شاتمه وواجهه أمام الناس: "إن كنت صادقًا يغفر الله لي، وإن كنت كاذبا يغفر الله لك"، ويروي عنه أيضا في كظم الغيظ وضبط النفس أن جارية له كانت تسكب ماء من إبريق ليتوضأ، فوقع الإبريق على وجهه فجرحه وسال الدم فرفع زين العابدين رأسه إليها معاتبا فقالت له الجارية:

" ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾، فقال: قد كظمت غيظي، فقالت:

" ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، فقال: قد عفوت عنك، فقالت:

" ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، فقال: أنت حرة لوجه الله

تعالى.

ومن العدل مع النفس أن يعمل الإنسان، وأن يكسب من عمله قوته وقوت عياله، وما من شيء يفضل شرف العمل. وقد مدح بعض الصحابة أمام رسول الله رجلاً ينقطع للعبادة فسأل الرسول عمن يطعمه فقيل له إن أخاه يعمل ويطعمه فقال: "أخوه أفضل منه".

ورأى النبي وهو يسير مع بعض صحابته رجلاً يعمل بهمة ودأب ونشاط فائق، فتمنى أحد الصحابة لو أن الرجل صرف كل هذا النشاط للجهاد في سبيل الله، أو للعبادة فعلمهم الرسول أن العمل بمثل هذا الإخلاص عبادة وجهاد في سبيل

الله. وكان ❐ يقول: "أشرف الكسب كسب الرجل من عمل

يده".

وقد أوجب على المسلمين حسن الأداء في العمل وجعله مما يحب الله في المخلوق، وجعل سوء الأداء أو الإهمال في العمل مما يبغضه الله "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه".

كل أولئك أشكال من عدل الإنسان مع نفسه، هذا العدل لا يرتقي بنفس الفرد وعقله فحسب بل يرتقي بالأمة كلها،

ذلك أن أمة تتألف من أفراد يعدلون مع أنفسهم ويأخذون بما آتاهم الرسول وينتهون عما نهاهم عنه، أمة تتألف من أفراد كهؤلاء متمسكين بالقيم الفاضلة لابد أن تكون مجتمعا مثاليا حقا، تملك نصاعة الفكر والقدرة على الابتكار، وتملك القوة، وتوفر لكل أفرادها السعادة التي يحلم بها الإنسان.

***

والإسلام قد أوجب على الإنسان أن يعدل مع الآخرين، وألزمه بقواعد في التعامل من حاد عنها اعتبر آثما.

وهدف هذه القواعد تحقيق مصلحة الفرد وحماية حقوقه بلا بغي ولا عدوان.

وما تسميه الشريعة الإسلامية "المعاملات" هو مجموعة من القواعد والنظم القانونية التي تحقق مصلحة الفرد، وتحمي حقه بوصفه عضوا في مجتمع.

وباسم العدالة في الإسلام، أصبحت الملكية وظيفة اجتماعية – فلا يحق لأحد أن يستعمل ما يملكه ويؤذي غيره بهذا الاستعمال، ومن باب أولى لا يحق له أن يؤذي به المجتمع.

ولا يحق لأحد أن يمسك ما يملكه، إن احتاج إليه المجتمع.

ولقد شرع الله الزكاة ليتم العدل بين الناس في بعض صوره، ولعن الرسول ﷺ المحتكر؛ لكيلا يحبس أحد عنده ما تحتاج إليه الأمة ويربح عليها ما ليس حقا له، وصادر عمر ابن الخطاب أموال المحتكرين، ونزع أرضا مواتًا كان الرسول قد أقطعها لأحد المسلمين فاحتجزوها، وقال عمر "إن رسول الله لم يقطعك لتحتجزها عن الناس؛ إنما أقطعك لتعمل فيها فخذ منها ما قدرت على عمارته ورد الباقي".

وقال عمر: "من عطل أرضا ثلاث سنوات لم يعمرها وجاء غيره فعمرها فهي له".

والمال في الإسلام حق الله، استخلف فيه الإنسان وأوجب عليه أن يأخذ منه ما ينفعه هو وعياله، وما يمكنه من المتاع الحلال " **وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴿ ثم فرض الله عليه أن ينفق منه كل ما هو في غنى عنه، ذلك أن تكديس المال مدعاة للظلم والطغيان وإهدار العدل " **كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى. أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى** ﴿، والمؤمن مطالب بأن يتصدق بما هو

فوق

الحاجة بكم القرآن " **ويـ سْألُوَنَـك ن الْعفــو ،**
مـاذا يِنفِقُوُ قُـلِ

والعفو هو ما زاد عن الحاجة، فما زاد عن الحاجة حق الله للأمة جميعا، " **وآتوهم من مال الله الذي آتاكم** "، وأن تملك

في الإسلام يعني أن الله استخلفك على هذا المال لتعيش منه أنت وعيالك ثم تنفق على الأمة ما فاض عن حاجتك: " **وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** "، وكان علي بن أبي

طالب يفتي بأن ما زاد عن طعام يومك حق لسواك، وليس معنى أن المال مال الله يؤثر به أحدا دون آخر كما حاول بعض ذوي الغرض أن يفهموا بل معناه أنه موظف لتحقيق المصلحة التي أرادها الله وهو خير الأمة جميعا، وهو بهذا مال الناس.

وقد كان السلف الصالح يتحرج في تطبيق قواعد المعاملات، فمنهم من كان يرفض الربح الفاحش حتى ولو ألح عليه الذي يتعامل معه، ومنهم من كان يرفض الكسب إن شابه شك في هذا الكسب، ولقد كان أبو حنيفة يشتغل بالعلم ويكسب قوته من عمل يده شأن كثيرين من علماء الزمن النابض بمسرات القلب المضيء بنور المعرفة.

ولقد ذهب أبو حنيفة يوما لبعض شأنه وترك غلاما في متجر له، وجاء رجل إلى المتجر فاشترى ثيابا ودفع ثمنها

وانصرف، وعندما عاد أبو حنيفة وعلم بالصفقة تذكر أنه كان بين الثياب ثوب معيب، ولكنه لم يستطع أن يقدر ثمنه ويفرزه من الصفقة كلها ولم يستطع أن يهتدي إلى المشتري، ولم يطمئن ضميره لقبول الثمن، فتصدق بثمن الثياب جميعا.

إلى هذا الحد كانوا يتحرجون.

***

وقواعد المعاملات التي جاء بها الإسلام تنمي العلاقات بين الأفراد وتحقق مصالحهم في إطار مصلحة الأمة، والالتفات إلى المصلحة والعدل هو أحد أصول التشريع، وتأسيسا على هذا استنبط علماء أصول الفقه قواعد عديدة، لعل من أهمها في مجال تحقيق المصلحة والعدل للأمة على حساب الفرد: "تحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام". وتأسيسا على هذه القاعدة يجب – كما يقول علماء أصول الفقه – "الحجر على المفتي الماجن، والطبيب الجاهل، والمكاري المفلس، لأن الأول يفسد على الناس أديانهم، والثاني يفسد عليهم أبدانهم، والثالث يفسد عليهم أموالهم".

وقد اهتم الإسلام بأحكام تطبيق العدل في المجتمع، ليحقق مصالح الناس وهي هدف الإسلام عقيدة وشريعة، ووضع

لذلك قواعد هي في الحق أخلاقيات العدالة – إن صح التعبير – قال تعالى: " فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى

فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ

عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ " هكذا جعل الله ميل

الحاكم أو القاضي مع الهوى ضلالاً يستحق العذاب الشديد.

وقال تعالى: " وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا

اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى " (شنآن – معاداة).

والعدل في الإسلام يقوم على أساس المساواة بين الناس، وقد حذر الرسول ﷺ من التفرقة في إجراء العدل فهي مدعاة للهلاك، قال: "إنما أهلك الذين من قبلكم من الأمم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها".

وكان أول كتاب وجهه عثمان بن عفان إلى الولاة عندما ولي الأمر: "أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة لا جباة، إلا وأن أعدل السيرة في أمور المسلمين، فتعطوهم

ما لهم وتأخذوهم بما عليهم"، وقال لعمال الخراج: "خذوا

الحق وأعطوا الحق، والأمانة الأمة، قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها".

وقد شاهد عمر وهو يتفقد أحوال الرعية ذات ليلة رجلاً وامرأة تحت جنح الظلام وظنهما زوجا وزوجة، ولما تبين أنهما ليسا كذلك أراد أن يقيم عليهما حد الزنا، واستفتى الناس فقالوا له:

"أنت أمير المؤمنين فاحكم بما رأيت" ولكن علي بن أبي طالب لم يوافق، وطالبه بأن يثبت عليهما الزنا بأربعة شهود، ليكون له أن ينزل بهما العقاب – كما جاء بالقرآن – فأخذ عمر برأي علي ولم يقم الحد برؤيته وشهادته وهو أمير المؤمنين لكيلا تجري الأمور من بعده على هذا النحو، فينهار العدل إن مال حاكم مع – الهوى – وهكذا وجب على القاضي ألا يقضي بعلمه!

وبهذا الفهم للعدل، وبإيمان عميق بأن العدل هو أقرب للتقوى، وبأن العدل هو الذي يحقق أهداف الإسلام، فتح المسلمون الأوائل أرض العراق والشام ومصر، وأزاحوا عن أهلها غاشية الظلم والظلمات.

وعندما أرسل سعد بن أبي وقاص ما في خزائن كسرى على عمر بن الخطاب بما احتوت من جواهر نادرة، لم يطمع فيها أحد من الذين غنموها قال عمر: "إن قوماً أدوا هذا، لذوو أمانة" فقال له علي بن أبي طالب "يا أمير المؤمنين عففت فعفت رعيتك".

ما كان بريق الذهب قد خطف الأبصار بعد، وكان عمر ما زال يتمثل نصيحة سلفه أبي بكر الصديق "أحذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ❐ الذين انتفخت أجوافهم وطمست أبصارهم وأحب كل امرئ منهم نفسه، إنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله"، وكان عمر يخاف الله، وأبقى بعض أولئك النفر في المدينة وأرسل بدلاً منهم رجالاً لا تطمح أبصارهم لغير نشر المبادئ التي يؤمنون بها.

وترك عمر الأرض بيد من فيها من الفلاحين في العراق والشام ومصر، وحررهم من عبودية الفرس والرومان وأصحاب الأرض، وأمر بأن يترك "لكل فلاح ما يحتاجه لنفقته هو وعياله ومن ينفق عليهم سنة كاملة، مع زيادة لدوابه"، وما بقى بعد هذا تأخذه الدولة.

وبهذا الفهم العميق للعدل، وزعت أرض الأندلس على الفلاحين عندما فتح العرب إسبانيا، فأصبح عبيد الأرض ملاكًا صغا ًرا، وهكذا ازدهرت الزراعة، وغنيت الأمة.

وهكذا حقق الإسلام في البلاد المفتوحة ثورة اجتماعية وفكرية كاملة، صنعت للإنسانية تقدمها حتى لقد كتب أحد المؤرخين الغربيين "ظل الإسلام في إسبانيا خمسة قرون من عام ٧٠٠ – ١٢٠٠، يتزعم العالم كله في القوة والنظام وبسطة الملك وجميل الطباع والأخلاق وفي ارتفاع مستوى الحياة، وفي التشريع الإنساني الرحيم والتسامح الديني، والآداب، والبحث العلمي والعلوم والطب، والفلسفة، ويضيف غيره: وفي احترام المرأة والعدل، أسوة بما كان يصنعه الرسول ، وفي ظل هذه الحضارة التي تحترم المرأة ظهرت "شهدة بنت أبي نصر" ولقبوها نقيبة رجال الشرع، فهي أستاذة.

وفي ظل هذه الحضارة التي أنشأتها عقول تؤمن بالعدل وتحب أن تكون عادلة مع نفسها ومع الآخرين ومع المجتمع، ازدهرت العلوم التي أفادت الإنسانية ويسرت الحياة على الناس، ووضع علماء المسلمين قواعد وتقاليد لمهنهم كلها

وهي تقاليد مشبعة بروح العدل، وها هو ذا "ابـن رضـوان" نقيب أطباء القاهرة في القرن الحادي عشـر يعلـم تلاميـذه واجبات الطبيب وتقاليد شرف المهنة: على الطبيب أن يكون مأموناً ثقة على الأرواح والأمـوال لا يصـف دواء قتـالاً ولا يعلمه، ولا دواء يسقط الأجنة يعالج عدوه بنية صـادقة كما يعالج صديقه".

بهذا الفهم للعدل بتطبيقه في كل ما يواجه الإنسـان مـن أقضية ومشاكل ومتطلبات، بهذا السلوك الذي ينبع من إيمان عميق بأن العدل هو تنظيم للحياة وحماية لمصـالح النـاس استطاع المسلمون أن يكونوا منارات تضيء للعـالم كلـه، وصنعوا حضارة ظاهرة عامرة بالحـب والخيـر والحـق والجمال، ومن الإيمان العميق بأن العدل واجب أمر بـه الله؛ تحققت للأمة وحدة جعلتها قوة جبارة لا ينال منها شيء.

وباسم العدل مع الذات والآخرين والمجتمع كان الأغنيـاء يبرون الفقراء، ويؤدون أموالاً طائلة للدولة لتحقق مصـالح الناس، وتشيع العدل بينهم.

ولقد يروق لبعض الناس في عصرنا أن يتشـبه بـبعض أغنياء المسلمين الأوائل، فيزعم أنهم امتلكوا الضياع وكثيرا

من الأموال، وعلى الرغم من أن هذا كان يثير أتقياء المسلمين من أولي العزم، وعلى الرغم من أن هذا لم يحدث في عهد الرسول ولا في عهد أبي بكر أو عمر، على الرغم من هذا فقد كان النفر ينفق عن سعة في سبيل الله دفاعا عن الأمة ومصالح الأمة كلها.

وكانوا ينفقون في الحرب دفاعا عن العقيدة، وينفقون في السلم، ليمكنوا أولياء الأمور من إقرار العدل والمساواة بين الناس، فما من ظلم أبشع وأثقل على النفس المؤمنة من أن يكتظ الأغنياء، ويكابد الفقراء؟

وقد قال رسول الله ما معناه: "ما آمن بالله ورسوله من بات شبعان وجاره جائع" والجار هنا هو الغير عامة.

ولقد يروق لبعض الناس في عصرنا أن يتحدثوا عن ثراء عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان"، فليتذكروا كم كان ينفق عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ليعينا أولياء الأمر على تحقيق المساواة، وهي فرع من العدل الذي جاء به الإسلام، وليمكنا أولياء الأمر من تحقيق مصالح الناس.

فليذكر هؤلاء ما فعله عثمان في عام المجاعة أيام عمر بن الخطاب.. كانت له قافلة قد وضع فيها كل ماله وعادت

القافلة ببضائع كثيرة، وتهافت التجار عليها ليشتروها.. وزايدوا فرفض عثمان قائلاً إنه يعرف من يعطيه فيها سبعمائة ضعف، فلما أنكروا هذا عليه فما في المدينة تجار سواهم أنبأهم أنه يعني الله وهو يجزي الحسنة بعشرة من أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وساق القافلة إلى الخليفة عمر، متصدقًا بها ليطعم منها جياع المسلمين، ولينفق منها على شئون الأمة في تلك الأيام الشداد.

فما بال رجال من أغنياء المسلمين يحاولون أن يتعللوا بابن عفان وابن عوف؟! ألا يعتبرون بما كان يفعل هذان الثريان من صحابة رسول الله؟ ما نريد أن نضرب لهم المثل برسول الله نفسه، ولكم في رسول الله أسوة، ولا بأبي بكر أو عمر أو علي أو أبي ذر الغفاري أو عمر بن عبد العزيز، أو غيرهم من الذين نبذوا الغنى، فهم يؤولون هذا كله ويخرجون به عن معناه، ولكننا ننتظر منهم أن يصنعوا بعض ما صنع السلف العظيم من أغنياء المسلمين، ننتظر أن ينفقوا من أموالهم ليمكنوا الأمة من الشعور بالعدل، وليتمكن أولو الأمر من أن يشيعوا العدل.

فليجاهد أغنياء المسلمين بأموالهم على الأقل، ولا نقول العفو، فليجاهدوا بأقل من العفو، فكل ما يبذلونه اليوم قليل، بل أقل من القليل بالقياس إلى ما أمرهم الله بإنفاقه.

فلينفقوا لدفع الظلم عن الأمة التي ينتمون إليها.إن

هدف الإسلام هو صيانة مصالح الناس، وما من شيء يمكن أن يحقق هذه المصالح مثل العدل، العدل مع النفس، ومع الأفراد الآخرين ومع المجتمع.

تلك حدود الله، فلا تعتدوها يا أغنياء الأمة، ومن يفعل فأولئك هم الظالمون.

العلـــــم

دخل رجل على أحد العلماء الورعين فوجده يبكي أحـر بكاء فسأله: "ما يبكك" قال العالم: "ليس أحـد يسـألني عـن

شيء". ولعل ذلك العالم الورع كان يشفق على نفسه من عـذاب يوم القيامة، أو لعله كان يتحرج من لقاء ربه؛ إذا هـو قـاملیصلي وقد مر عليه يوم لم ينفع الناس بعلمه، أو لعله كـانيتذكر قول الرسول ☐: "أشد الناس عذابا يوم القيامـة عـالم
لا ينفع الناس بعلمه".

ذلك أن أهل العلم من السلف الصـالح الـذين أضـاءت عقولهم بالعلم وعمرت قلوبهم بالتقوى، كـانوا يـدركون أن العلم أمانة حملها الله العلماء من عباده ليؤدوها إلى النـاس، فالله يحاسب الناس على أعمالهم، ولن يتوصل الإنسان إلـى أداء العمل إلا إذا تعلم كيف يؤدي هذا العمل، ولا سبيل إلى هذا إلا بالعلم، وهذه هي مسئولية الذين يعلمون.

فالعلم – ليس كالمال – زينة وفتنة، ولكنه مسئولية.

وإذا كان هدف الشريعة هو تحقيق مصالح النـاس، وإذا كان العدل هو الذي يوفق بين هذه المصالح، فإن معرفة هذا العدل والعلم به ليتم العمل الإنساني في إطار العـدل، هـذا العلم إذن فريضة، لتحقق الشريعة هدفها.

والعلم هو طريق الإنسان ليعرف ربه، فهو إذن الطريـق الصحيح إلى الإيمان العميق الثابت.

والعلم هو بعد ثمرة الإيمان؛ لأن المؤمن الحق يجـب أن يتجه بعمله إلى تنفيذ قصد الشريعة، ومـا قصـد الشـارع إلا تحقيق مصالح الناس، فيجب أن يكون المؤمن عالما بهذه المصالح، أو على الأقل متفهما لها ليتجه بعملـه فـي كـل صغيرة وكبيرة إلى تحقيق المصلحة العامة التي تعني الأمـة جميعا.

من أجل ذلك جعل الله العلم مرادفًا للإيمان.

“ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات”. فالرفعة مرتبطة بالإيمان وبالعلم، والدرجات مقسومة عند الله على أساس ثبات العقيدة وعمق المعرفة وسعتها، لا على

أساس الغنى أو الجاه أو الحسب كما يتوهم بعض الناس!

وهذه هي الطبقة الوحيدة التي يسمح بها الإسلام: التمايز بالتقوى والعلم الذي يقود إلى العمل الصالح، وهي في الحق طبقية محمودة.. وعدم مساواة مجيدة: **" قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ "** بل إن ابن عباس الذي يحفظ تراثنا عنه معظم ما نعتز به من تفسير للقرآن ومن سنة رسول الله، ابن عباس يقول: "للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة سنة" ومهما يكن تصوره، فهو يشيد بفضل العلماء.

وقد ألقى الله على العلماء مسئولية فهم حكمته وشرحها للناس، ليعتبروا مما يضرب الله تعالى لهم من أمثال: **" وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ "**.

وهو يحمل العلماء أمانة استخراج الأحكام وتنوير الناس بوجوه المعرفة، ويطالب الناس بأن يردوا الأمور إلى الذين يعلمونها لاستنباط ما خفي ظاهره، وجلاء ما غمض، وليصبح كل على بصيرة: **" وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ "**.

وقد خص الله العلماء كما خص الملائكة والأنبياء بمعرفة وجوه العدل الإلهي الذي هو ملاك حركة الأكوان وحركـة

الحياة، ومن هذه المعرفة تنبع مسئوليتهم عن التنوير وعن مقاومة الظلم وعن العمل تحت راية الحق، " شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ".

وقد شرف الإسلام العلم، واعتبره وظيفة اجتماعية يؤديها من يعلم لتحقيق مصلحة الأمة.

وما أرسل الرسل والأنبياء إلا من أجل تحقيق مصالح الناس، من أجل ذلك قال رسول الله ﷺ "العلماء ورثة الأنبياء".

لقد فرض الإسلام على الناس أن ينفروا للعلم كما ينفرون للجهاد مستعملاً ذات اللفظ المستعمل للجهاد في سبيل الله، وهو لفظ "نفر" ففي القرآن: " فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا ".

وقال علي بن أبي طالب: "العالم أفضل من الصائم القائم (المصلي) والمجاهد، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة (حدث في الإسلام ثغرة) لا يسدها إلا خلَف له".

وقال الإمام الغزالي: "أصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال، وإذا كان العلم أفضل الأمور كان تعلمه طلبا للأفضل وكان تعليمه إفادة للأفضل".

والمسلمون يملكون هذا التراث الذي يمجد العلم، وكلهم يعرف أن طلب العلم فريضة بنص حديث النبي، وكلهم يعرف أن العلم هو الطريق الوحيد لحسن أداء العمل الذي يحاسب عليه الإنسان لتتم حكمة الله في الحساب والثواب والعقاب، وبالرغم من هذا فما زلنا نجد في ربوع بلادنا الإسلامية غاشية الجهل والأمية جاثمة بظلماتها على معظم السكان، إننا لا نستطيع أن نحقق مصلحة الأمة، أو ننجز أي تقدم حقيقي وأغلب الناس لا يعلمون، ولا يقرءون ولا يكتبون.

إن كل فرد من هذه الأمة مكلف شرعا بأن يتعلم، والذين يعلمون مكلفون شرعا بأن يعلموا الأميين، وكل أولي الأمر في الأقطار الإسلامية مطالبون شرعا بأن يزيحوا غشاوة الجهل عن عقول الذين يلون أمرهم، ولقد غاضب رسول الله ❒ قبيلة كانت تقرأ وتكتب لها جيران أميون، وعنف وفد القبيلة لأنهم لم يعلموا جيرانهم، ولم يظهر لهم الرضا عنهم حتى عادوا بعد عام وقد علموا جيرانهم الأميين.

وقد كان من تقاليد الحكم في عصور الإسلام الزاهرة أن يقدم العلماء على من عداهم من الناس، بهذا غنيت الأمة

ومنحها العلماء عطاءهم من المعرفة، وكان عطاؤهم وفيرا، وهكذا شاعت العدالة والحرية وحققت الأمة الإسلامية تقدما باهرا وحققت لنفسها القوة والمنعة والهيبة، وقد كتب بعض المستشرقين يصف الحكومة الإسلامية في أحد البلاد التي فتحها المسلمون في صدر الإسلام:

"ازدهر الاقتصاد وأقبل كل الناس على العمل في ظل حكومة تسيرها ثل عليا ديمقراطية أمينة، وقد وجد المثقفون البارعون الأذكياء تشجيعا من النظام الجديد وهكذا تقدمت العلوم والآداب وارتقى الفكر وحققت الحكومة الإسلامية الجديدة عصرا من الغنى والعدالة والتقدم".

وما ظننا بأمة يقوم النظام فيها على العدل، ويتمايز الناس فيها بقدر ما في قلوبهم من تقوى وما في العقول من علم، وما تكسب اليد منِ عمل؟

ما ظننا بأمة تضيء الثقافة أعماق أبنائها، ويعرف كل فرد منهم ماذا يريد وكيف يعمل؟.. ألا تستطيع هذه الأمة أن تحقق لنفسها ما تحلم به من رفاهية ومن قوة وأن تكون فوق أطماع العدو، ألا تستطيع مثل هذه الأمة أن تفرض هيبتها على من يطمع فيها، وأن تكون قوة حضارية فعالة.

وقد ورثنا عن السلف أن "داود" نبي الله خُيِّر بين العلم والمال والملك فاختار العلم، فأوتي المال والملك والعلم جميعا.

ولقد سألت عائشة رسول الله ﷺ: "بم يتفاضل الناس في الدنيا" قال: "بالعقل"، قالت: "وفي الآخرة" قال: "العقل" قالت: "أليس إنما يجزون بأعمالهم" فقال: "يا عائشة وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله عز وجل من العقل فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم وبقدر ما عملوا يجزون".

وإن أمة تضيء المعرفة عقول أبنائهم لا بد أن تنجز من الأعمال ما يحقق لها على هذه الأرض جنة من العدالة والنعيم والتقدم.

لقد كان أهل العلم من السلف الصالح يعرفون جلال العلم، وكان أحدهم يقول: "ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم وأي شيء فاته من أدرك العلم" وقيل "لم يخلق الإنسان إلا للعلم".

وبهذا النظر إلى العلم قسموا فريضة العلم إلى نوعين: فرض عين، وفرض كفاية، كل مسلم مكلف بأن يتعلم، وهذا التكليف الشرعي فرض عين أي أنه فرض على كل مسلم،

ويجب عليه أن يأخذ من العلم هذا القدر الذي يقوده إلى الإيمان الصحيح وإلى العمل الصالح وإلى اجتناب العمل الفاسد، أي هذا القدر الذي تحقق به مصلحته ومصلحة الأمة.

وإذن فهذا القدر من العلم الذي يمكنه من قراءة القرآن واجب شرعي.

والقدر من العلم الذي يمكنه من فهم القرآن واجب شرعي، وأدوات فهم القرآن وهي علوم اللغة العربية، يعتبر تعلمها تكليفاً عينيا، أي على كل فرد مكلف أن يعلمه.

ومن الواجب على الفرد المكلّفَ أن يتعلم ما يعينه على حسن التعامل مع الناس وفهم طبيعة الحياة والأشياء، فهم القدر الجدير بإنسانيته، فعليه إذن أن يعرف معرفة عامة قدرا صالحا من الرياضة والتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعة.

ولو أننا ترجمنا هذا إلى لغة العصر لوجب على كل مسلم أن يتعلم هذا القدر من العلم الذي يتوافر لحاصل على الشهادة الإعدادية اليوم، ولعلها مسئولية أولياء الأمر في بلادنا أن يجعلوا التعليم الإجباري أو الإلزامي حتى نهاية المرحلة الإعدادية، وواجب المسئولين عن محو الأمية أن يتيحوا للكبار الأميين مثل هذا القدر من العلم.

إنها واجبات شرعية وهي ضرورة تطور.

فلنتذكر أن الإنفاق على العلم ليس واجب ولي الأمر فحسب، ولكنه واجب على كل مقتدر، فلينفق أغنياء المسلمين من أموالهم على العلوم، فكل نفقة في الإسلام يجب أن تعود إلى العدل الذي يحقق مصالح الناس.

والطريق الصحيح لكفالة هذا العدل ولضمان مصالح الناس هو العلم.

أما العلم الذي هو فرض كفاية فهو هذا النوع من العلم الذي يصلح به المجتمع، ويستجيب من خلاله إلى احتياجاته، وهو علم لا يجب أن يتعلمه كل فرد، ولكن يجب أن يتعلمه في الأمة عدد من الأفراد بقدر ما تقتضي مصالح الأمة، وهم يكفون غيرهم وينهضون عنهم بهذا الفرض، وهذا كعلوم الصنائع المختلفة وكالطب والهندسة والزراعة والعلوم الطبيعية والكيميائية والتكنولوجيا والاقتصاد والتجارة والقانون والآداب وغير ذلك.

أي أن العلوم التي تدرس في الجامعات والمعاهد العليا والمعاهد الفنية كلها تعتبر من باب فرض الكفاية، ولكن يجب أن يتعلمها العدد الذي يستلزمه تحقيق مصلحة الأمة.

والعلم له أخلاق وآداب.

وهي أخلاق يلتزمها المعلم والمتعلم على السواء، وبعضها يتعلق بالعلم نفسه.

فالعلم الذي يقود إلى هلاك البشر مكروه ويجب البعد عنه، ولكن يجب تعلمه لمواجهة الأعداء.. والأصل أنه لا يجب العمل به إلا في موقف الدفاع عن العقيدة والوطن ومصالح الناس ضد أعداء معتدين أو طغاة باغين، لأن المقصود بالعلم هو الارتقاء بالإنسانية، وهكذا يقرر الإسلام مبدأ العلم للسلام وللحياة، ودفاعا عن هذا السلام يجب على هذا المسلم أن يتعلم ما في دار الحرب من علم، أي كل العلوم التي يستخدمها الأعداء ضده ليعمل بها ضدهم دفاعا عن الوطن.

وهذا هي القاعدة الأخلاقية الإسلامية التي ترتبط بالعلم

نفسه. أما ما يرتبط بالمتعلم فهو أن يدرك أن طلب العلم جهادفي سبيل الله، فعليه أن يحرص على أداء دوره في هذا

الجهاد وألا يسمح لشيء بأن يعوقه عن هذا الجهاد.

وقد روى أبو ذر الغفاري عن الرسول ﷺ أنه قال: "حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة وعيادة ألف مريض وشهود ألف جنازة" فقيل له: "يا رسول الله ومن قراءة القرآن؟" قال: "وهل ينفع القرآن إلا بالعلم".

فطلب العلم مفضل على الجهاد والعبادة، وقد قيل إن مداد العلماء يوزن بدماء الشهداء فيرجح، وفي الحديث: "من سلك طريقاً يطلب به علما سلك الله به طريقاً إلى الجنة".

ومن واجب العالم أن يكون أسوة، وأن يعمل بعلمه، فيكون حركة للدفاع عن العدل والحق والحرية، وأن يعرف كرامة العلم فلا يبتغي به إلا وجه الله، وإلا الحقيقة وحدها.

وإذا كان العلم الذي ينقله العالم إلى الناس يدعوهم إلى القيم الفاضلة فمن واجب العالم أن يكون هو نفسه متمسكاً بالقيم الفاضلة، يجب أن يكون علمه خادما لعمله، وقد قال أحد الحكماء: "يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتجل"، وقد روى لنا السلف أن علماء كانوا يبتغون بعلمهم وجه الدنيا ويراءون وينافقون الظالمين فأحلهم الله خنازير!! كم من العلماء في عصرنا يمكن أن يتحولوا إلى خنازير؟!

" كَبُرَ مقتاً عِندَ اللهِ أَن تقُولُوا ما لاَ تَفْعَلُونَ " أتأمرون الَّناسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وقد قال عمر بن الخطـاب:

"إذا رأيتم العالم محبا للدنيا فاتهموه على دينكم".

إن العلماء هم حماة الحقيقة وحرية الفكر، فليدرك العلماء أن العلم هو نور اليقين والإيمان، وهو الذي يمنحهم القوة ليستغنوا، ولقد كان السلف يقولون: "إن الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك".

وقد دافع كثير من العلماء عن رأيهم واحتملوا العذاب: منهم ابن حنبل، ومنهم مالك الذي نهاه الخليفة عن رواية حديث يقضي ببطلان طلاق المكره، وكان للخليفة مأرب في إكراه رجل على تطليق امرأته، وعلى الرغم من أن الخليفة عذب الإمام مالكًا ليمتنع عن رواية هذا الحديث فقد ظل يرويه على ملأ من الناس.

وقد أراد الخليفة من الإمام أبي حنيفة أن يتولى بيت المال (أي يصبح وزيرا للمالية أو للخزانة) أو يضرب ظهره بالسياط، ولكن أبا حنيفة آثر العلم، واختار أن يعذَّب.

وقد طلب هارون الرشيد من الإمام مالك أن يأتيه في قصره، ليعلم أولاده فقال الإمام مالك: "إن أنتم أعززتم هذا

العلم عز، وإن أذللتموه ذل، والعلم يؤتى ولا يأتي" فأمر الخليفة أولاده أن يذهبوا إلى الإمام مالك في داره.

بهذا الفهم لدور العلم تقدم المسلمون، وتقدموا بصفة خاصة في العلوم التي كانت تصون مصالح الإنسان وحياتهم، وكان أولها الطب الذي يقوم على رعاية الصحة، وتقدموا في علوم الصيدلة والكيمياء والرياضيات والتحاليل والطبيعيات وكل العلوم التي توفر الرفاهية للإنسان، وتجعل الحياة أيسر على الأحياء.

ودرست أبحاثهم في جامعات أوربا حتى القرن السابع عشر، وكانت قوانين ابن سينا في الطب هي أساس النهضة الطبية، وكذلك كانت أبحاث غيره من العلماء والمفكرين المسلمين هي أساس النهضة الأوروبية في العلوم والفكر. حتى لقد أمر لويس الحادي عشر ألا يدرس أرسطو في جامعة باريس ألا بشرح ابن رشد المفكر والعالم الأندلسي، وكان الطب العربي هو الذي يدرس في جامعات فرنسا وإيطاليا بكل إنجازات الطب العربي وتقدمه.

إننا نريد أن نستعيد هذا العصر الذهبي، وفي الحق أننا لن نحقق ما نريد من تقدم ورفاهية، وما نطمح إليه من عزة

وقوة حتى يؤمن كل مسلم أن "طلب العلم فريضة"، وأن للعلم كبرياء وأن العلم شرع للعمل به.

لن نصل إلى ما نحلم به حتى نصنع في توفير العلم، وحفظ مكانته وتيسيره لأداء دوره ما كان يفعله السلف العظيم، وما كانوا يصنعون هذا إلا عن إيمان عميق بمبادئ الإسلام بالقيم الفاضلة التي جاء بها الإسلام.

من الذي يفسر لنا مبادئ الإسلام؟

ما من دولة عربية – أرادت أم لم ترد – لا تحكم فيها المعاملات المدنية والتجارية قواعد الشريعة الإسلامية، إما نقلاً عن الشريعة مباشرة، وإما بطريق غير مباشر، نقلاً عن القوانين الأوروبية، التي نقلت هي نفسها عن الشريعة الإسلامية، وهذا الوضع الأخير يبدو شاذا بحق.

إن ذلك لشيء عجيب، ولكنه هو الواقع في الدول العربية التي نقلت عن القوانين الفرنسية أو الألمانية دون أن تدري أن لديها الأصول كلها.

وإذن فلا مشكلة في تطبيق الشريعة الإسلامية في المعاملات المدنية والتجارية، ولا في قوانين الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وحضانة إلى آخر هذه الأصول التي تنظم العلائق الإنسانية في الأسرة الواحدة، فالشريعة الإسلامية هي القانون الوحيد بين المسلمين، ولكن المشكلة تثور عند تطبيق الشريعة الإسلامية في الأحوال الجنائية، في العقوبات.

فالعقاب يمس الحرية والحياة.

والمجرم الذي يفلت من العقاب؛ قد يشكل خطـرا علـى المجتمع كله، وتهديدا للقيم التي تتمسك بها الأمة، والبـريء الذي ينزل به عقاب لا يستحقه يصم المجتمع كلـه بـالظلم ويسحق الطمأنينة في القلوب.

" **مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا** ".

ومن أجل ذلك كان الصحابة الأوائل يتحرجون في إنزال العقاب أشد الحرج، وهم أقرب الناس إلى منـابع الشـريعة وأكثرهم بصرا بها.

كانوا يدفعون الحدود بالشـبهات ولا يأخـذون المـذنب إلا بيقين، بيقين من الواقعة التي ارتكبهـا، ومـن الشـهود العدول، ومن النص الذي يطبقونه.

ولهذا أفتي عمر بن الخطاب بأن السارق إذا سرق عـن جوع فلا عقاب عليه، وأفتى علي بن أبي طالـب – وكـان عمر يقول عنه إنه أقضـي الصحابة – بأن من يسـرق عـن حاجة ليطعم نفسه أو عياله، فولي الأمر هو المسئول لأنه هو الذي دفعه إلى السرقة، وهو الذي يجب أن يتحمل العقاب.

بهذا التكامل في الحياة، كان الأوائل يطبقون مبادئ الشريعة، كانوا يناضلون كلهم من أجل مجتمع غني، ومن أجل حياة فاضلة لكل إنسان، لا يجوع فيها ولا يعري، حياة يحدد العمل فيها قيمة الإنسان، ومكانه، حياة من الإخاء الحق، ومن المساواة الحق، الحرية هي أنسامها، ومن حق كل مواطن أن يمارسها وأن يقوِّم الحاكم إذا أخطأ، وأن

يضرب على يد المستغل.

حياة تستقر فيها العدالة وتطمئن بها القلوب.

في ظل هذا النضال الرائع من أجل حياة أفضل كان كل إنسان أمة بأسره، تفتحت العقول، واستوعبت كل الحضارات التي سلفت، وانتفضت طاقة الإنسان العربي، فقدم عطاءه العظيم، وهكذا نشأت الحضارة الجديدة، وعاش هؤلاء الأسلاف الضخام رحماء بينهم أشداء على الأعداء لا ينام الواحد منهم وجاره محتاج، ولا يسكت فيه رجل أو امرأة على ظلم أو على عوج أو على فساد مهما يكن ضئيلاً

وهكذا استطاعوا أن يكونوا المجتمع الذي كان يحلم به الإنسان في عصور العذاب.

في ظل مثل ذلك المجتمع كان من الممكن حقــا تطبيـق قواعد الشريعة الإسلامية في الأحوال الجنائية والعقوبات.

أما مجتمعاتنا الراهنة، فيا حسرتاه على العباد!!

في مجتمعاتنا الراهنة والحياة تطالبنا بمطالـب جديـدة، وأقضية جديدة تتطلب فهما عميقاً خالصا للإسلام كذلك الفهم الذي واجه به الفقهاء الأوائل تطور الحياة، فـي مجتمعـاتهم التي كانت جديدة، ومن هم هـؤلاء الـذين يسـتطيعون أن يفسروا لنا مبادئ الإسلام، وأن يفتوا لنا بإعادة تشكيل الحياة على أساس هذه المبادئ.

من هم هؤلاء ذوو النظر العميق والمبرءون من التعصب والمصلحة؟

من هم؟ مرة أخرى وا حسرتاه على العباد!!

أنا أحد الذين يؤمنون بأن الإسلام يملـك مـن المبـادئ الثورية والمتقدمة ويملك من القدرة علـى المعاصـرة، مـا يستطيع أن يواجه به كل احتياجات هـذا الزمـان، ولكـن الإسلام في حاجة إلى هذا النسق من الرجال ذوي البصائر، كبار القلوب أنقياء النفوس، أحرار الضمائر، واسعي الأفـق الذين لا يحملون الكتاب كالحمار يحمل أسفارا، وإنما يعـون

ما فيه، ويستطيعون أن يستنبطوا الأحكام التي تسد احتياجات العصر، فأين هم؟!

لقد نصح أبو بكر الصديق خليفته عمر بن الخطاب أن يحذر ذاك النفر من الصحابة الذين فتنتهم الدنيا فانكبوا عليها؟

كان هذا في عهد أبي بكر، فكم هم الآن هؤلاء النفر الذين يسمون أنفسهم علماء الدين والذين يسكتون عن المنكر، ولقد ينهون عن المعروف، لكي يستمتعوا بالطيبات؟!

لقد تمنيت على الله أن نحذر هؤلاء المستشرين في كثير من بلادنا العربية، وإنهم ليطربون الآن للدعوة إلى تطبيق الشريعة لا إخلاصا للشريعة، ولكن ظنا منهم أن الأمور ستئول إليهم فتأتي دولتهم، فإذا هم الوارثون!

وما من شيء أخطر على الشريعة الإسلامية من أن يحسب بعض المخلصين من حكام المسلمين أن هذا النفر ممن يسمون أنفسهم رجال الدين، هم الذين أوتوا العلم حقا وهم ورثة الأنبياء حقا!! وهم من أجل ذلك يستحقون أن تكون لهم كلمة مسموعة أو نافذة.

إنهم يريدون كهنوتاً خاصا، وما زال في أعماقهم أثر هائل من الوثنية القديمة، وكأنهم قد أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم!!

إنهم متعصبون يضرون أكثر مما ينفعون، وما يخدمون إلا مصالحهم الخافية وأهواءهم وأطماعهم.

إنهم حرب على التقدم، والتقدم هو جهر مبادئ الإسلام.

إنهم أعداء الحرية والفكر، وهم يريدون أن يفرضوا ظلمات الجمود على كل مظاهر الحياة.

إنهم لم يحاربوا أبدا أية صورة من صور الفساد الحقيقي التي تنهش في مجتمعنا، وهي تحت أعينهم يرونها في كل صباح ومساء، لأنهم ينافقون في الله، ولكنهم إذا انطلقت صيحة مخلصة لتنفض عن مبادئ الإسلام ما فيها وما عليها من غبار أخذتهم الصيحة فانقضوا يكيلون الاتهامات، ولقد أذكر أنهم ما اجتمعوا يوما لمواجهة فساد أو إقامة صرح، بل للأذى!

لكم أتمنى على الله أن يجنب المخلصين من حكام المسلمين، فساد رأي هؤلاء وسوء ما يفعلون.

ينبغي عندما نفكر في تفسير مبادئ الشريعة الإسلامية،أن نحسن اختيار المفسرين، أن نرى المصلحة التي تحرك الرجل والتي ينطق عنها، أن نتحسس هواه وتاريخه، إلى أي مدى ينطق عن الهوى.

فمن هؤلاء الذين يسمون أنفسهم علماء من يسكت عن كل المنكرات التي يرتكبها حكامهم وحكوماتهم، ومنهم من حلل للشركات الأمريكية المستغلة استغلال العرب، في مصر وغير مصر من أرض العرب.

ومنهم من أفتى بأن الإصلاح الزراعي ضد الدين، وأن الاشتراكية ضد الإسلام.

لقد أدان القضاء بعضهم بجرائم فساد!

ومع ذلك، فلدينا علماء أجلاء.

لدينا فقهاء في الدين، ولكنهم لا يزاحمون بالمناكب بل يخلصون الدين الله، وما زالوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر مهما يكابدون، وهم يكابدون من زملائهم المتكالبين على المناصب والأضواء وملء البطون!

لدينا فقهاء أنار الله بصائرهم وصفَّي ضمائرهم، فما يبتغون إلا وجه الله.

ولكنهم في الظل، لأنهم يتعففون.

وهم لا يتداعون فوق الطعام.

وهم يمشون في الحياة على استحياء، يحملون كتاب الله سراجا منيرا.

والمخلصون من حكام المسلمين، مطالبون بأن يبحثوا عن هذا النفر من الفقهاء المخلصين، الذين يدركون ما في الإسلام من نقاء، ومن طاقات، ومن قدرة على سد احتياجات هذا العصر.

إن البحث عن هذا الطراز من الفقهاء يجب أن يمليه الحرص الصادق على إعادة صياغة مجتمعاتنا، لتكون بحق مجتمعات فاضلة قائمة على العدل والإخاء.

ولتكون الكلمة للحق، لا للأطماع.

وليكون الدين الله، لا لهذا النفر من الذين يسمون أنفسهم رجال دين.

***